الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومَن اهتدى بهداه.

نبدأ معكم -إن شاء الله- التعليق على مقدمة كتاب: (الرسالة) لابن أبي زيد[1] -رحمه الله، وتعليقات من فضيلة الشيخ بكر أبو زيد[2] -رحمه الله، وابن أبي زيد المصنف القيراواني من أشهر علماء المالكية، ومشهور بأنه -رحمه الله- من أهل السنة في أبواب العقيدة، وتاريخه متقدم؛ لأنهم من أعلام القرن الرابع كما هو مُبيَّن، فإنه وُلِد سنة عشر وثلاث مئة وتُوُفِّي سنة ست وثمانين وثلاث مئة.

وهذه الرسالة معظَّمة عند المالكية، وهي متن فقهي، وربما نشبهها بعمدة الفقه من مصنفات الحنابلة، للموفق ابن قدامة[3]، إلا أن ابن أبي زيد -رحمه الله- صدَّرها بذكر باب في الاعتقاد.

---

(١) الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمد، عبد الله بن أبي زيد، القيرواني المالكي، ويقال له: مالك الصغير. كان أحد من برز في العلم والعمل. قال القاضي عياض: حاز رئاسة الدين والدنيا، ورحل إليه من الأقطار ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب، وملأ البلاد من تواليفه. تفقه بفقهاء القيروان. كان -رحمه الله- على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام، ولا يتأول. توفي سنة ست وثمانين وثلاث مئة. من أهم مصنفاته: "النوادر والزيادات". انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠ ترجمة ٤)، والديباج المذهب (١/ ٤٢٧ ترجمة ١١).

(٢) الشيخ العلامة الفقيه بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد. أبو عبد الله القضاعي النجدي الحنبلي. ولد بعالية نجد عام خمس وستين وثلاث مئة وألف. درس في الكتاب حتى السنة الثانية الابتدائية، ثم انتقل إلى الرياض، وفيها واصل دراسته الابتدائية، ثم المعهد العلمي، ثم كلية الشريعة، حتى تخرج فيها منتسبا، وكان ترتيبه الأول. تتلمذ على الشيخ ابن باز، وصاحَب الشنقيطي -صاحب التفسير- حتى وفاته. عُين إماما وخطيبا للمسجد النبوي، ثم اختير وكيلا لوزارة العدل، ثم عضوا في لجنة الفتوى، وهيئة كبار العلماء، ثم عين ممثلا للمملكة في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ثم اختير رئيسا للمجمع. وله مؤلفات وتحقيقات جياد حسان؛ منها: "المدخل المفصل"، و"التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل"، و"فقه النوازل". توفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من المحرم سنة ثمان وعشرين وأربع مئة وألف. انظر: مقدمة جامع فتاوى اللجنة الدائمة في طبعتها الجديدة؛ ففيها ترجمة بقلم ابنه عبد الله.

(٣) موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي ثم الحنبلي. الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام. مولده بجماعيل من عمل نابلس في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمس مئة. قدم دمشق مع أهله وله عشر سنين، قرأ القرآن، وحفظ مختصر الخرقي، وكان شيخ الحنابلة. توفي يوم عيد الفطر سنة عشرين وسبع مئة. صنف التصانيف الحسنة؛ منها: "المغني" في الفقه المقارن، و"الكافي"، و"المقنع". انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٥ ترجمة ١١٢)، والذيل على طبقات الحنابلة (٣/ ٢٨١ ترجمة ٣٠٠).

ولشهرتها وتعظيمها كثُرت العناية بها، وكثر شرَّاحها وحفَّاظها ونظَّامُها، فقد اعتنى بها الناس عناية عجيبة شرحًا ونظمًا، وذُكِرَ في النسخ المطبوعة أنها كُتِبَت في بعض المناسبات بالذهب، ولا أقول أنا: إنها أفضل من غيرها، لكن الناس فيما يعشقون مذاهب، وإلا فقد قرأها عليَّ بعض الإخوان الجزائريين، فوجدتُ إنها كتاب فقهٍ مختصر-ككتب الفقه المختصرة، التي تكون عبارتها فيها خفاء؛ لأن الاختصار يؤدي إلى خفاء المعنى، مثل: زاد المستقنع، مع أن كتب الحنابلة أوضح عبارة من المؤلفات في البدائل الأخرى، وابن قدامة ضَمَّن كتابه -أعني العمدة- بعض الأحاديث، ونوَّه عن هذا في المقدمة.

ومذهب أهل السنة في الاعتقاد ليس محصورًا على الحنابلة، فالأئمة -رحمهم الله- كلهم على مذهب السلف، بل هم السلف، لكنهم على مذهب مَن قبلهم من التابعين والصحابة -رضوان الله عليهم.

وكما دخلت المذاهب الكلامية على أهل المذاهب من الحنفية والشافعية المتأخرين منهم، أيضًا فالمتأخرون من الحنابلة دخلت عليهم المذاهبُ الكلامية في الاعتقاد، فتجد هؤلاء ينتسبون إلى الأئمة في مسائل الأحكام -المسائل الفقهية، ويخالفون الأئمة الذين ينتسبون إليهم -كالشافعي ومالك- في مسائل الاعتقاد في الجملة، فمُقِلٌّ ومستكثر.

فالواجب اتباع ما مضى عليه الصدر الأول من الصحابة -رضوان الله عليهم، والتمسك بما مضوا عليه، هم والتابعون ومَن سلك سبيلهم، فهم أهل السنة والجماعة، وهم العلماء، وهم الذين يعوِّلون في دينهم علمًا وعملاً على كتاب الله وسنة رسوله.

هذا هو طريق السلام والهدى، قبل أن يتفرق الناس وتتسع الفرقة، فإن الفرقة حدثت في هذه الأمة مبكرًا، فمع وجود علماء الصحابة بدأت الفرقة، فقد بدأت في عهد الصحابة على يد الشيعة والقدرية، فكلهم وُجِدوا في عهد الصحابة -رضوان الله عليهم، ثم لم يزل الاختلاف والافتراق يتسع وتعظُمُ المحنة، ولا سيما فيه أخريات القرن الثاني وما بعده.

قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني -رضي الله عنه وأرضاه: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي ابْتَدَأَ الإِنْسَانَ بِنِعْمَتِهِ، وَصَوَّرَهُ فِي الأَرْحَامِ بِحِكْمَتِهِ، وَأَبْرَزَهُ إِلَى رِزْقِهِ، وَمَا يَسَّرَهُ لَهُ مِنْ رِزْقِهِ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا، وَنَبَّهَهُ بِآثَارِ صَنْعَتِهِ، وَأَعْذَرَ إِلَيْهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُرْسَلِينَ الْخِيَرَةِ مِنْ خَلْقِهِ، فَهَدَى مَنْ وَفَّقَهُ بِفَضْلِهِ، وَأَضَلَّ مَنْ خَذَلَهُ بِعَدْلِهِ، وَيَسَّرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيُسْرَى، وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِلذِّكْرَى، فَآمَنُوا بِاللهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ نَاطِقِينَ، وَبِقُلُوبِهِمْ مُخْلِصِينَ،

وَبِمَا أَتَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُ وَكُتُبُهُ عَامِلِينَ، وَتَعَلَّمُوا مَا عَلَّمَهُمْ، وَوَقَفُوا عِنْدَ مَا حَدَّ لَهُمْ، وَاسْتَغْنَوْا بِمَا أَحَلَّ لَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِ..

أَمَّا بَعْدُ..).

يقول -رحمه الله: (الحمدُ لله الَّذِي ابتدأَ الإنسانَ بنعمتِهِ). فالله -تعالى- هو الذي بدأ الإنسان بنعمته، ولم يقم من الإنسان أي سبب، فمرَدُّ الأمر كله إلى الله، لكن هناك أمور لم يكن للإنسان فيها سبب أصلاً، فالله ابتدأ الإنسان بنعمته فأوجده، وصوره، وشقَّ سمعه وبصره، وأخرجه من بطن أمه، فقال: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(٤)، لكنه ما خرج إلا وقد زوَّده الله بما يحتاج إليه منه في خَلْقِه، فصوَّرَه، وشق السمع والبصر، وخلق له الأعضاء، فأصبح الإنسان مهيأ للمَهَمَّات، وهذه النعم لم يكن للإنسان فيها تسبب أصلاً.

وهكذا فالله بدأه بنعمته، وهكذا نعم الله على الإنسان تترا؛ فخلق الإنسان أطوارًا في بطن أمه، ثم أطوارًا بعد ولادته، فقال -تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾(٥).

ونعم الله -تعالى- نوعان:

نِعَم كونية مادية دنيوية، وهي ما يتصل بخلقه، وتكوينه، وما يحتاج إليه.

ونعم دينية، وهي النعم التي ساقها الله على يد رسله، وكل ذلك من الله ابتداءً.

ومن نعمه -سبحانه وتعالى- ما جعله الله سببًا من قِبَله للإنسان، مثل ما يحصل للعبد؛ بما وُفِّق له من أعمال صالحة، الله يجزيه عليها، ودعاء يدعو به فيجيبه -سبحانه وتعالى، وهذه النعم التي للعبد فيها تسبب مرَدُّها إليه، فمَن الذي وفقك للعمل الصالح ثم هداك؟! فالأمر عاد إليه أولاً وآخرًا، فله الأمر كله.

حتى ما للإنسان فيه تسبب فهو راجع إليه -سبحانه وتعالى؛ لأن هذا السبب من الله، فهو الذي وفق العبد للعمل، وأثابه، ووفقه للدعاء، وأجابه.

---

(٤) النحل: ٧٨

(٥) غافر: ٦٧

فعادت النِّعم كلها أولها وآخرها، وظاهرها وباطنها، وما له سبب من قِبَل الإنسان، وما ليس له سبب من قبله عاد ذلك كله إليه؛ لذلك قال -تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(٦)، فهذه الآية جامعة، وقوله -تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، أسلوب عموم، أي: كل نعمة في الإنسان، وفي أي إنسان فهي من الله، فهو خالق الإنسان وخالق النِّعَم، قال -تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٧)، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(٨).

فلا يزال العبد يتقلب في نِعَم، والنعم المادية أو الكونية مشتركة بين العباد؛ وبين البَرِّ والفاجر، وبين المؤمن والكفار، أما النِّعم الدينية فمختصة بِمَن يختارهم الله.

(وصورهُمْ في الأرحامِ بحكمتِهِ). (وصوَّرَهم)، هذا وما بعده عطف، وهو من عطف الخاص على العام، فصور الله الإنسان في الأرحام بحكمته، وكثيرًا ما يُذَكِّر الله عباده بذلك، قال -تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(٩). وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(١٠)، وقال أيضًا: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(١١).

فالله صوَّر الإنسان في الأرحام، ومَن الذي يزعم أن له دورًا في تطوير الإنسان؟! فالإنسان يبدأ في بطن أمه، ويتطور نطفة فعلقة فمضغة، ثم بعد ذلك يأتي تصوير الإنسان، فتجد الناس -على كثرتهم- لا تتماثل صورتهم، فجميع الناس -مع الكثرة- لا يتفق اثنان على صورة واحدة، من جميع الوجوه؛ بحيث لا تميز أحدهم على الآخر مع تماثلها، ويمكن مع غياب أحدهما تشبيهه بالآخر، لكن إذا اجتمعا فإنه لا بد أن يفترقا، ومن أسماء الله -تعالى: المصور، قال -تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾(١٢).

---

(٦) النحل: ٥٣

(٧) لقمان: ٢٠

(٨) إبراهيم: ٣٤

(٩) آل عمران: ٦

(١٠) الانفطار: ٦ - ٨

(١١) التغابن: ٣

(١٢) الحشر: ٢٤

يقول -رحمه الله: (وصوَّرَه في الأرحامِ بحكمتِهِ). فالله صورهم بمشيئته، وبقدرته، وبحكمته، فالتصوير يكون بمشيئة الله وقدرته وحكمته؛ وله الحكمة في تنويع الصور، وفي خلق هذا على صورة، وخلق الآخر على صورة، فهم أولاد من أم وأب، ويخرجون بصور مختلفة! ولله في ذلك حِكَم بالغة.

وتصوير الظاهر وتصوير الباطن أيضًا موجود، فالتصوير الظاهر هو الصورة الظاهرة، والصورة الباطنة هي التي ينبني عليها اختلاف الملكات والعقول، هذا أيضًا نوع من التصوير الذي تختلف فيه أحوال الإنسان، (وصورَهُ في الأرحامِ بحكمتِهِ)، فهو لا يخلق أو يصور بدون محض مشيئة، فلا يفعل شيئًا عَبَثًا أو لَعِبًا، بل خلق السماوات والأرض بما فيهن بالحق وللحق.

(وأبرزَهُ إلى رزقِهِ، ومَا يسرَهُ لَهُ من رزقِهِ). هذه المرحلة بعد الأرحام، (وأبرزه) أي: أخرجه من بطن أمه، (وأبرزه لرزقِهِ، وما يسَّرَهُ له من رزقِهِ)، فالله أخرج الإنسان من بطن أمه، وأبرزه لهذا الوجود بعد أن كان غائبًا، فبرز وظهر للوجود، وصار شيئًا مشاهَدًا حاضرًا، والضمير هنا -كما يقول بعض الشراح: يعود إلى الإنسان. فأبرزه لرزقه، أي: لينتفع ويُرْزَق بما يسره الله له من أنواع المنافع.

ويحتمل أن الضمير هنا يعود إلى الله، وهو أظهر؛ لأن الضمائر في هذه الجمل تعود إلى الله، فالضمير عائد إلى الله، أي: أبرز الإنسانَ ليتمتع برزق ربه له، ورزق الله لعبده بما يسوقه إليه من الإحسان ابتداءً، وأول الرزق هو ما جعله الله في قلب أمه من الحنان؛ حيث يعطِّفُهَا عليه، فتحمله وترحمه وتحسن إليه وترق له، فهذا الرفق من رفقه -سبحانه، فرفق الأم بابنها هو من رفق ربه به، وصرْف الآفات عنه من رفقه -تعالى.

وما يسره الله للعبد بعد ولادته من رزقه الحاضر، وهو أول رزق يكسبه، فتُعَدُّ للمولود الثياب والملابس قبل أن يُولد، وهناك تجهيزات حاضرة، والرزق مُيَسَّر قبل أن يُولد، فهل هذا من فعل الإنسان؟! كذلك ما يتجهز به ثديا الأم، وما تستعد به من الرزق (اللبن)، فهذا مما يسره للطفل من الرزق.

ثم يتواصل هذا، ولو نقف مع هذا المعنى وقفات لانتهت أوقات في استعراض رزق الله، فرزقه ميسر، ويبدأ من مولده، وهكذا يتواصل، ومن رزق الله أيضًا: ما يحصل للإنسان دون تسبب منه، فما يحصل للطفل من خدمة الأبوين وعنايتهما، هل كان بتسبب منه؟! بل هو داخل في المعنى الأول، وهو النعم التي يبتدئ الله بها العبد.

لكن نعم الله منها ما يجريه على يد مَن شاء من الخلق، ومنها ما ليس كذلك، ثم بعد ذلك تتواصل النعم، إلى أن يكون من رزق الله ما يطلبه هذا الإنسان.

فهذا المولود عندما يكبر يكون عنده استعداد ليطلب الرزق، قال -تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾(١٣)، وقال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾(١٤)، وابتغاؤه يكون بالدعاء، وبفعل الأسباب التي خلقها الله، وجعلها سببًا للأرزاق، فالرزق من: مطعم مشرب وملبس ومسكن... داخل في الرزق، فكله من رزق الله.

(وعلمَه ما لم يكنْ يعلمُ، وكانَ فضلُ الله عليهِ عظيمًا). (وعلمه ما لم يكن يعلم)، كأنه يشير إلى الرزق المادي الذي يكون به غذاء وقوام وبناء الأبدان، وهنا يشير إلى نوع آخر، وهو من الرزق في الدنيا، وهو الرزق المتعلق بالنفوس والعقول، فقال -تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(١٥)، لكن الاستعداد للعلم موجود، وأدوات العلم موجودة، فالإنسان فيه نواة العقل، وفيه السمع والبصر، قال -تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾(١٦).

فهذه أدوات العلم، وهي موجودة، لكن تحصيلها للعلم يكون تدريجيًّا؛ شيئًا فشيئًا، فيبدأ التعلم منذ صغر الإنسان، وهو طفل صغير، أي: العلم الذي يحصله الإنسان بعد ولادته، فليس مخصوصًا بالعلم الدراسي الذي يدرسه بعد الكبر، بل يبدأ التعلم منذ الصغر، فلا يعرف الكلام إلا بتعليم يتلقاه بسمعه، ويتلقى أيضًا ببصره بعض العلوم، فيميز بين الإنسان والجدار، ويميز بين أبويه، ويميز بين إخوته، وينمو هذا العلم، وينمو العقل، وتنمو المدارك شيئًا فشيئًا؛ حتى يبلغ الإنسان ما قُدِّر له من ذلك.

(وعلَّمَه ما لم يكنْ يعلمُ)، يدخل في هذا: ما يعلمه بالتلقي من أبويه ومحيطه الأول، ويدخل فيه: ما يتعلمه بعد الكبر، ويدخل فيه: ما يتعلمه من شؤون الحياة، ويدخل فيه: ما يتعلمه من العلم الصحيح النافع، وهذا هو الفضل العظيم، وهذا الذي امتن الله به على نبيه؛ حيث قال -تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(١٧). وقال: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١٨).

(١٣) الملك: ١٥

(١٤) العنكبوت: ١٧

(١٥) النحل: ٧٨

(١٦) النحل: ٧٨

(١٧) النساء: ١١٣

(١٨) العلق: ٤ – ٥

فالإنسان لم يكن يعلم ثم تعلم، وكل علم لدى الإنسان مسبوق بالعدم، ومسبوق بالجهل، لكن علم الله هو الذي لم يتقدمه جهل؛ فعلمه -تعالى- قديم، فلم يزل بكل شيء عليمًا، أما المخلوقات -بما في ذلك الملائكة- فعلمهم مخلوق، قال -تعالى: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾(١٩)، وقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِّ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٢٠).

لكن هناك تفاضل بين العباد في خَلقهم، وفي خُلقهم، وفي علمهم، وهذا التفاضل لا يعلم مداه وتفاوته إلا الله، وهذا التفاضل يكون في العلوم المادية، والدنيوية، والكونية، والشرعية، قال -تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾(٢١)، فالتفاضل بين الخلق يكون في علومهم ورزقهم وتكوينهم، والأنبياء فَضَّل الله بعضهم على بعض.

(ونبَّهَهُ بآثارِ صنعتِهِ، وأعذرَ إليهِ على ألسنةِ المرسلينَ الْخِيَرَة من خلقه، فهذا مَن وفقَهُ من فضلِه). (ونبهه) هذه معطوفة على ما قبلها، (ونبَّهه بآثارِ صنعتِهِ)، يعني: أرشده، ودَلَّه بآثار صنعته، وآثار صنعته هو هذا الوجود من: الإنسان والأرض والسماء والهواء، فهذا كله ﴿صُنْعَ اللهَِّ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٢٢)، فالسماوات والأرض والكواكب والهواء والسحاب والإنسان والحيوان... كل ذلك هو من آثار صنعته.

فهو خالق السماوات والأرض، ومَن فيهن، وما بينهما، وهو خالق الإنسان، فالله -تعالى- نَبَّه الإنسان بآثار صنعته، ونبهه إلى ما في هذه الصنعة من الدلالة على أن لها صانعًا، وأن هذا الصانع عليم، وأنه حكيم، وأنه رحيم، وأنه قدير، ففي الدلالات تنبيه؛ كما قال -تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

(١٩) البقرة: ٣٢

(٢٠) النساء: ١١٣

(٢١) الإسراء: ٢٠ – ٢١

(٢٢) النمل: ٨٨

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢٣]، وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[٢٤]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٥].

فالله نَبَّه الإنسان بآثار صنعته، لكن مَن الذي ينتفع؟ المنتفع هو الذي ينتبه، ويتفكر، ويعقل، ويستعمل ما زوَّده الله به من العقل، أما المُعْرِض فإنه لا ينتبه، قال -تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٢٦]، فهل هؤلاء انتبهوا؟! لم ينتبهوا، كما قال -تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[٢٧].

لكن مَن المنتبه؟! الذين انتبهوا هم المذكورون في قول الله -تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢٨]. فهؤلاء هم الذين انتبهوا.

وتوجد الآن بعض الأحداث التي تجري في هذا الوجود، ولكن بعض الناس فقط هم الذين يعتبرون بها، كما قال -تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾[٢٩].

فالمتفكر والمُوَفَّق ينتبه ويلاحظ ويتدبر؛ ونتيجة لهذا التنبه والتدبر يذكر ربه، ويسبح بحمده، وتزداد معرفته بالله. فهذا هو المعنى الأول، وهو التنبيه الكوني.

أما المعنى الثاني فهو: التنبيه الشرعي، فالآيات الكونية فيها حجة على العباد، لكن لا يكون بها الإعذار، فالآيات الكونية لا يكون فيها الإعذار، بل الإعذار يكون بإرسال الرسل، (وأعذرَ إليهِ علَى ألسنةِ رسلِهِ)، كما قال -تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٣٠].

---

(٢٣) فصلت: ٥٣

(٢٤) الذاريات: ٢٠ - ٢١

(٢٥) الرعد: ٣

(٢٦) يوسف: ١٠٥

(٢٧) الأنبياء: ٣٢

(٢٨) آل عمران: ١٩٠ - ١٩١

(٢٩) آل عمران: ١٣

فأرسل الله الرسل ليعرِّفوا العباد بربهم، ويعرفوهم الطريق الموصل إليه، يعرفوهم مصيرهم، يقيمون الأدلة على ما جاءوا به، فمَن أطاعهم سعد وأفلح، ومَن عصاهم هلك، قال -تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾(٣١)، وجاء في الحديث الصحيح: «لاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرَ مِنَ الله؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»(٣٢).

(وأعذرَ إليهم على ألسنةِ رسلِهِ، الذين هم خيرتُهُ من خلقِهِ). فالرسل هم خيرة الله من خلقه، وهم أفضل الناس، وهم فيما بينهم يتفاضلون، وإرسالهم مسبوق باختيارهم واصطفائهم، فهم المصطفون الأخيار، قال -تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِّ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾(٣٣)، فرسله وأنبياؤه هم المصطفون الأخيار، كما قال -تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾(٣٤).

(فهدى مَن وفَّقَهُ بفضلِهِ، وأضلَّ مَن خذلَهُ بعدلِهِ). هذا أثر إرسال الرسل، فبعد الإرسال يصير الناس فريقين: (فهدَى مَن وفقَهُ بفضلِهِ)، والهداية نوعان: هداية توفيق، وهداية إرشاد، والمراد هنا بالهداية: هداية التوفيق، والهداية لقبول الحق، والتوفيق، وإجابة دعوة الرسل هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُّ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٣٥)، ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِّ وَكَفَى بِاللهِّ عَلِيمًا﴾(٣٦)، فهذا مَن وفقه بفضله.

فبعد الدعوة يصير الناس فريقين: موفَّق مهدِي، ومخذول ضال. (وأَضلَّ مَن خذلَهُ بعدلِهِ)، أي: جعله ضالاًّ بخذلانه، والخذلان ضد التوفيق، فيوجد تقابل في الجمل وبين: الهدى والضلال، التوفيق والخذلان، والفضل والعدل.

---

(٣٠) النساء: ١٦٥

(٣١) الأنفال: ٤٢

(٣٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول النبي: «لا شخص أغير من الله» (٧٤١٦)، مسلم: كتاب اللعان (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة.

(٣٣) النمل: ٥٩

(٣٤) ص: ٤٥ – ٤٧

(٣٥) البقرة: ١٠٥

(٣٦) النساء: ٧٠

(فهدَى مَن وفقَهُ بفضلِهِ، وأضلَّ من خذله بعدلِهِ)، فأفعاله دائرة بين: الفضل والعدل، إذن هو المحمود -سبحانه وتعالى- على عطائه ومنعه، فله الحمد على فضله وعدله، وله الحمد على عطائه ومنعه -سبحانه وتعالى، وهو أعلم حيث يجعل فضله، وأعلم حيث يجعل رسالته -سبحانه وتعالى.

(فهدى مَن وفقه بفضلِهِ)، كما في قول الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[٣٧]، فواجب الرسل، أو ما يملكه الرسل هو البلاغ والبيان، كما قال -تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣٨]، فله الحكمة البالغة في عطائه ومنعه، وتوفيقه لمن شاء، وخذلانه لمن شاء.

(ويسرَ المؤمنينَ لليسرَى، وشرحَ صدورَهُم للذكرى، فآمنوا باللهِ بألسنتِهم ناطقينَ، وبقلوبِهم مخلصين، وبما أتتهم به رسلُهُم وكتبُهُ عاملِينَ).

(ويسرَ المؤمنينَ لليسرَى)، نلاحظ أن في هذه الجملة تفصيل لقوله: (فهدَى مَن وفقَه بفضلِهِ)، فهذا تفصيل لحال هذا الصنف المهديين المَوَفَّقين بفضله -سبحانه وتعالى، (ويسرَ المؤمنينَ لليسرَى)، أي: يسر مَن هداه ووفقه لليسرى؛ أي: للطريق الميسرة، طريق السعادة، فمَن كان من أهل السعادة؛ فإن الله ييسره لعمل هذه السعادة؛ كما قال -تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[٣٩].

(وشرَحَ صدورَهُم للذكرَى)، أي: شرح صدورهم فجعلها قابلة للتذكير والذكرى التي جاءت بها الرسل، فالرسل جاءوا بالذكر، وبالذكرى، وبالتذكير لما خُلِق له الإنسان، والتذكير بمصير الإنسان، فالله -تعالى- يسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى، كما قال -تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[٤٠]، وشرح الصدر فيه اتساع، كما قال -تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٤١]، وفي دعاء موسى -عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[٤٢]، فشرح الصدر فيه

---

(٣٧) إبراهيم: ٤

(٣٨) إبراهيم: ٤

(٣٩) الليل: ٥ - ٧

(٤٠) الأنعام: ١٢٥

(٤١) الشرح: ١

سعادة، وفيه انبساط، وفيه أُنْس، فالانشراح الحقيقي هو الانشراح الذي يكون منشؤه الإيمان والعلم الصحيح، أما الانشراح وسعة الصدر التي تحصل بعوامل مادية مما يمتلكه الناس، فإن النعم الدنيوية مشتركة -كما تقدم- بين الخلق.

(شرحَ صدورهُمْ للذكرَى)، أي: جعلهم متقبلين محبين لها، قال -تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَّ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلاً مِّنَ اللهَّ وَنِعْمَةً﴾[43].

(فآمنوا باللهِ بألسنتهم ناطقينَ، وبقلوبِهم مخلصينَ، وَبِمَا أتتْ بِهِ رسلُهُ وكتبُهُ عاملِينَ)، فهذا نتيجة التيسير، وشرح الصدور للذكرى التي نتيجتها أن نطقت ألسنتهم بالإيمان بالله.

(فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين)، فهذا انشراح، (وبقلوبهم مخلصين، وبما جاءت به رسلُهُم عاملين)، هذه آثار ماذا؟ هذه آثار هداية الله وتوفيقه وتيسيره وشرحه لصدورهم، فهذه أمور ومعانٍ متلازمة، هداية وتوفيق تيسير وشرح، وأثره صلاح الظاهر والباطن، (فآمَنُوا باللهِ بألسنتِهم)، أي: شهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأخلصوا دينهم لله بقلوبهم، (وبقلوبهم مخلصِينَ، وبما جاءتْ به رسلُهُم عاملِينَ)، فظهر أثر هذه الهداية والتوفيق على قلوبهم اعتقادًا وعملاً، وعلى ألسنتهم نطقًا وتكلُّمًا، وعلى جوارحهم كلها عملاً وحركة وطاعة.

(فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين)، فلا بد للإيمان أن يكون ظاهرًا وباطنًا. (وتعلَّمُوا ما علَّمَهُم، ووَقَفُوا عند ما حَدَّ لهم). (وتعلَّمُوا مَا علَّمَهم)، تعلموا هنا يحتمل أن تكون بمعنى: علَّموا ما عَلِمُوا، أو أنهم تعلموا، أي: طلبوا علم ما علمهم، وما جاءت به رسلهم، و(تعلم) في اللغة العربية، تأتي بمعنى: اعلم، وتعلم بمعنى: اطلب العلم، وتعلم بمعنى: عَلِم. فقوله: (بما علَّمَهم)، كأنه يريد: أنهم علموا ما علَّمهم، أو أنهم طلبوا ما علَّمهم، وربما يكون الاحتمال الأول: أنهم تعلموا ما علمهم -سبحانه وتعالى- هو الأظهر.

(ووقفوا عند مَا حَدَّ لهم)، أي: وقفوا عند حدود الله، فلم يتجاوزوا المباح إلى الحرام، ولم يتجاوزوا ما شرع الله لهم إلى الابتداع، كما قال -تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهَّ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾[44]، فإن هذا من وجوه: الاستقامة،

(٤٢) طه: ٢٥

(٤٣) الحجرات: ٧ - ٨

(٤٤) البقرة: ٢٢٩

والوقوف عند حدود الله، فلا يتجاوز العبد ما حدَّ الله له من المشروع إلى الممنوع إلى البدعة، ولا يتجاوز ما أباح الله إلى ما حرمه، فالحدود نهى الله عن الاقتراب منها؛ وهي المحرمات، وحدود نهى الله عن تعَدِّيها، وهي المشروع والمباح، قال -تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾(٤٥)

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾(٤٦).

(ووقفوا عند ما حدَّ لهم)؛ عند ما حدَّ لهم في العلم وفي العمل؛ حتى في العلم: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(٤٧)، هذا من الوقوف عند الحدود في الجانب العلمي؛ ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(٤٨). إذا سئل الإنسان عما لا يعلم؛ يقول: الله أعلم. هذا من الوقوف عند حدود الله، يقف الإنسان عند حد علمه، فلا يَدَّعِي ما لا علم له به، ولا يقول على الله ما لا يعلم.

(واستغنوا بما أحل لهم عمَّا حرَّم عليهم).

استغنوا: اكتفوا. وهذا أيضا من الوقوف. من الوقوف عند حدود الله: الاكتفاء بالمباح عن الحرام، هذا وقوف، فلا يتجاوز ما أباح الله له إلى ما حرم؛ في كلامه، وفي طعامه وشرابه، يعني عام سواء في الأفعال، في العبادة، استغنوا ما أحل لهم عما حرم عليهم، وفيما أحل الله للعباد مما يحتاجون إليه كفاية وغُنْيَةٌ عما حرم عليهم؛ كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَ أُمَّتِي فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْهَا»(٤٩). فليس هناك حرام إلا في حالات استثنائية؛ في حالة الضرورة الله -تعالى- أباح المحرَّم عند الضرورة، لكن في الحالة العامة الله أغنى العبادَ بما أحل لهم من الطعام؛ أغناهم عن الميتة، وأغناهم عن الخنزير، وأغناهم عن المحرمات الأخرى، لكن إذا عَرَضَ عارض؛ فما حرَّمه عليهم أباحه لهم.

(أَمَّا بَعْدُ:

---

(٤٥) البقرة: ٢٢٩

(٤٦) البقرة: ٢٢٩.

(٤٧) الإسراء: ٣٦.

(٤٨) الإسراء: ٣٦.

(٤٩) صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيح (١٣٩١) من حديث أم سلمة بنحوه، صححه ابن المنير في البدر المنير (٨/ ٧١٢-٧١٣)، وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام صححه ابن حبان (١٢٥١).

أَعَانَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ عَلَى رِعَايَةِ وَدَائِعِهِ، وَحِفْظِ مَا أَوْدَعَنَا مِنْ شَرَائِعِهِ.

فَإِنَّكَ سَأَلْتَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَكَ جُمْلَةً مُخْتَصَرَةً مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَةِ، مِمَّا تَنْطِقُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَتَعْتَقِدُهُ الْقُلُوبُ، وتَعْمَلُهُ الْجَوَارِحُ، وَمَا يَتَّصِلُ بِالْوَاجِبِ مِنْ ذَلِكَ مِنَ السُّنَنِ؛ مِنْ مُؤَكَّدِهَا وَنَوَافِلِهَا وَرَغَائِبِهَا، وَشَيْءٍ مِنَ الآدَابِ مِنْهَا، وَجُمَلٍ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ وَفُنُونِهِ عَلَى مَذْهَبِ الإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وَطَرِيقَتِهِ، مَعَ مَا سَهَّلَ سَبِيلَ مَا أَشْكَلَ مِنْ ذَلِكَ؛ مِنْ تَفْسِيرِ الرَّاسِخِينَ، وَبَيَانِ الْمُتَفَقِّهِينَ؛ لِمَا رَغِبْتَ فِيهِ مِنْ تَعْلِيمِ ذَلِكَ لِلْوِلْدَانِ، كَمَا تُعَلِّمُهُمْ حُرُوفَ الْقُرْآنِ؛ لِيَسْبِقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ فَهْمِ دِينِ اللهِ وَشَرَائِعِهِ، مَا تُرْجَى لَهُمْ بَرَكَتُهُ، وَتُحْمَدُ لَهُمْ عَاقِبَتُهُ - فَأَجَبْتُكَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِمَا رَجَوْتُهُ لِنَفْسِي -وَلَكَ- مِنْ ثَوَابِ مَنْ عَلَّمَ دِينَ اللهِ أَوْ دَعَا إِلَيْهِ).

هذه مقدمة المؤلف، هي مقدمة للكتاب كله، وقد تضمنت ذكر سبب هذا التأليف، وأنه طلب منه أحد المعلِّمين للقرآن أن يكتب له من فنون العلم الشرعي؛ عقائده، وأعماله، وأخلاقه، وآدابه، وفنون العلم من الأصول والفقه ما يُلقِّنُه ويعلمه للأولاد؛ ليجمع لهم بين تعليم القرآن، وتعليم الأحكام والآداب.

ومعلومٌ أن هذا المطلب على صفة الاختصار، وقد فعل المؤلف، فألف هذا الكتاب المعروف الذي سبقت الإشارة إلى أنه قد صار له شهرة وعُنِيَ به علماء المالكية؛ شرحًا، ونظمًا، ودراسة. فالله يجزي فاعل الخير ومن كان سببا فيه؛ فالكل أهلٌ لثواب الله، والله -سبحانه وتعالى- يجزي كلَّ من سعى في الخير ودعا إليه وكان سببا فيه.

وقد ذكر في هذه المقدمة أنه قد أجاب إلى ما طُلِبَ منه، وفصل ذلك، وضمن هذه الرسالة ما طُلب منه من بيان الواجبات الشرعية والسنن بأنواعها، والآداب، ومن فنون العلم الشرعي كذلك؛ أصوله وفروعه. وقد تضمنت جمل هذه المقدمة معانيَ جميلة، فأريد -كما صنعت بالأمس في جُمَلِ الخطبة- أن نقف مع جمل المقدمة؛ لأن لها دلالات ومعاني تستحق الوقوف عندها، والاستفادة منها، وما ترمي إليه.

(أما بعد). أولاً قال: (أما بعد) هذه الجملة يؤتى بها وتستعمل في أساليب التأليف والخطابة، في التأليف وفي الْخُطبة سواءً كانت الخطب الشرعية المقيدة أو الخطبة غير مقيدة، كما لو أراد من يُلقي درسًا أو يلقي يتحدث عن موضوع؛ فإنه يقدم له ويقول: أما بعد.

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأتي بها في خطبه ويقول: «أَمَّا بَعْدُ».

إذن: فاستعمالها في الكلام سُنَّةٌ، استعمالاها في الخطبة أما بعد، يقول: أما بعد، بعدما يثني على الله، فإنه يقول: "أما بعد" وهي جملة يؤتى بها للانتقال من افتتاح الكلام إلى بيان المقصود، وتقرير المقصود.

ويفسرها النحويون يقولون: أما بعد معناها: مهما يُذكر من شيء بعد؛ فهو كذا وكذا، ولهذا يؤتى بعدها بالفاء الجوابية، مهما يذكر من شيء؛ فهو الأمر الفلاني.

(أما بعد) إلا أن المؤلف لم يأت بالفاء، فكان من المناسب أن يقول أما بعد؛ فأعاننا الله وإياك.

(أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه).

هذه دعوة حسنة، (أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه). الأمانات التي اؤْتُمِنَّا عليها، وربما أن المؤلف يشير إلى أن هذا المُعَلِّمَ مستودعٌ؛ أن الأولاد وديعة عنده، قد عُهِدَ إليه بتعليمهم، أو يريد ما هو أعم من ذلك.

(أعاننا الله وإياك) دعاء استعانة، (أعاننا الله).

أعان: فعل ماض، لكنه يؤتى به ويساوي: أسأل الله أن يعينني وإياك، فالدعاء تارة يأتي بفعل الطلب اللهم أعني، أو أستعينك يا الله، أو بصيغة الفعل الماضي.

(أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا الله من شرائعه): هذا تخصيص بعد تعميم، يعني الإنسان مودع لودائع كثيرة، نعم الله وديعة، ما استرعي عليه من أهل وولد هم وديعة، وما عُهِدَ إليه بحفظه وديعة.

ولكن أعظم هذه الودائع ما استودع الله عبادَه من دينه وشرعه، التكاليف الشرعية أمانة؛ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٥٠] العلم أمانة، والتكاليف الشرعية أمانة. ولهذا قال: (على رعاية ودائعه، وحفظ ما استودعنا من شرائعه) فالإنسان مسؤول عن علمه وعن عمله؛ فكله أمانة، وعليه أن يقوم بواجب علمه، وأن يقوم بشرائعه؛ أوامره ونواهيه، وحفظها: بالقيام بها كما أمر الله.

(فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطِق به الألسنة وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح).

---

(٥٠) الأحزاب: ٧٢.

هذا تصريح بسبب التأليف: (وأنك سألتني أن أكتب لك مختصرا) فيما توجبه (أمور الديانة)؛ يعني في أمور الديانة. الديانة: التدين، ديانة مصدر مثل العناية، والصناعة. ديانة، يفعل هذا ديانة؛ يعني تَدَيُّنًا وعبادة، ديانة مثل العبادة، تدينًا.

(مما توجبه أمور الديانة، مما تنطق به الألسن، وتعتقده القلوب وتعمل به الجوارح)؛ فإن الدين يتعلق بهذه الجوانب، الدين مثلما نقول في الإيمان: اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان بالجوارح.

(مما تنطق به الألسن، وتعتقده القلوب، وتعمل به الجوارح). فأمور الديانة تتعلق بهذه الجوارح والجوانح، وتحقيق القيام بدين الله إنما يكون بالاعتقاد الصحيح والقول الحق، والعمل الصالح ظاهرا وباطنا.

(وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- وطريقته).

أيضاً يقول: إنه لا يقتصر على ذكر ما توجبه أمور الديانة، لا يقتصر فيما سيذكره ويدونه ويحققه ويفصله، لا يقتصر على الأمور الواجبة، على الواجبات الشرعية اعتقادا وقولاً وعملاً، بل وما يتصل بالواجب من السنن؛ مؤكدها ونوافلها وآدابها ورغائبها. ويضيف إلى ذلك بيان ما قرره أهل العلم من أهل الأصول والفقهاء، فهذه يعني أن الرسالة قد تضمنت -على اختصارها- جنسَ جميع أنواع المعاني الشرعية؛ اعتقادية، وقولية، وعملية، من واجبات، ومن سنن، وآداب وفضائل. وفعلاً هذا مختصر -مع اختصاره- قد تضمنه.

ولا بد أنه قد اقتصر على ما رآه من المهمات، وإلا؛ فالعلم واسع، ومما يُبَيِّنُ أنه قد قصد إلى ذكر هذه الجوانب على وجه الاختصار أنه كتبه للأولاد الذين يتعلمون القرآن صغار السن، يعني يكونون من ثمان أو من سبع فما فوق، وتسع وعشر إلى ما قبل البلوغ، وهؤلاء لا يناسبهم إلا الاختصار والإيجاز.

ويقول أيضا: إنه في هذا كله قد مشى على مذهب الإمام مالك وطريقته -رحمه الله-.

وأهل العلم لهم مذاهب، واختيارات، واجتهادات، وطرائق في فهم الأدلة، وأئمة السلف لا تُنَافِي طرائقُهم واجتهاداتُهم طريقةَ غيرهم؛ كُلٌّ له اجتهاده. مثلاً الإمام أحمد له أصول في فهم الأدلة وفي الاستدلال وفي الفتوى، ولأبي حنيفة له أصول. لكنْ مَرَدُّ هذا كله الاجتهاد، وهذا أكثر ما يجري في الأمور العملية، في العمليات.

أما الأصل: أن مسائل الاعتقاد الأصل أنهم فيه على منهج واحد وطريق واحد هذا هو، إنما هذا التباعد وهذا الاختلاف إنما يجري في المسائل العملية كما هو ظاهر. يعني أهل السنة والجماعة ليس بينهم خلاف في مسائل الاعتقاد، لكن يختلفون في المسائل العملية؛ في أبواب الطهارة؛ مسائل وفاق ومسائل خلاف، وفي الصلاة، وفي الزكاة، وفي الصيام وفي المعاملات، مسائل كثيرة موضع إجماعات، ومسائل كثيرة موضع اتفاق.

والإمام ابن تيميّة[٥١] يقرر في كتابه "الاستقامة" أن ما يتفق عليه أهل العلم أعظم وأكثر مما يختلفون فيه؛ خلافا لمن يظن خلاف ذلك. فيبدو للقارئ أن مسائل الخلاف أكثر من مسائل الاتفاق والأمر بالعكس، وارجعوا إلى هذا الموضع؛ فإنه نافع في هذا المقام.

(مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك، من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين؛ لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلمهم حروف القرآن؛ ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته).

يقول: (إنه على مذهب الإمام مالك وطريقته مع ما سهَّل)؛ يعني مع ذكر ما سهل ما أشكل من ذلك، مع ذكر تفسير الراسخين وبيان المتفقهين، الراسخين في العلم المتمكنين، والمتفقهين، لا أظن أنه يريد المتفقه يعني بالمفهوم الشائع المتفقه يعني المحترف للفقه، الذي ليس على تمكن، لا.. المتفقه الأشبه أنه يريد المتفقه يعني المتمكن في علم الفقه؛ لأنه عطفه على الراسخين، والذين لديهم القدرة على بيان ما أشكل من المسائل، وهم المُعْنِيُّون بالفقه، المجتهدون فيه، اقرأ الجملة مرة أخرى (مع ما سهل سبيل ما أشكل).

(مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك، من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين؛ لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلمهم حروف القرآن).

يقول: (لما رغبت من ذلك لتعليم الولدان كما تعلمهم حروف القرآن): كما تقدم؛ ليجمع لهم بين تعليم حروف القرآن وألفاظه؛ ليتقنوا النطق به، ويضيف إلى ذلك تعلم أصول الاعتقاد ومسائل في أبواب الفقه..

---

(٥١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيميّة الحرّاني، ثم الدمشقي، الحنبلي، الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد. برع في العلوم الإسلامية والآلية، وقمع الله به أهل الضلال، ونصر به أهل السنة. ولد سنة إحدى وستين وست مئة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مئة. وله من المؤلفات: الواسطية، ومنهاج السنة. انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١ ترجمة ٥٣١)، والوافي بالوفيات (٧/ ١٠ ترجمة ٦١٩).

وهكذا ينبغي أن لا يُقتصر في تعليم الشباب في حلق التحفيظ ما ينبغي أن يقتصر فيها على تعليم حروف القرآن، بل ينبغي أن يُعَلَّمُوا أيضا من الفقه، وأحكام العقيدة، يعني يقرر لهم بعض المختصرات في العقيدة، والمختصرات في الفقه؛ لتعليمهم أحكامَ دينهم؛ فإن هذا أيضا هو من مقاصد تعلم القرآن، ليس المقصود من تعليم الأولاد القرآن تَعَلُّمَ ألفاظ كما هو الحاصل من كثير من المسلمين؛ يقفون عند تعليم ألفاظ القرآن، ويعنون ببعض التجويد فقط، وينشغلون بدراسة التجويد ودراسة القراءات عن العناية بالأحكام المأخوذة من القرآن ومن السنة.

وقد كان السلف، الصحابة كانوا يتعلمون القرآن ولا يتجاوزون العشر آيات حتى يتعلموا معانيهن والعمل بهن، فينبغي أن يُلتفت إلى هذا المنهج وهو تعليم المعاني.

وليس المقصود من تعليم المعاني يعني ما في كتب التفسير من تشقيقات، والتوسع فيما يَخْرُجُ به الإنسان عن مقصود التفسير؛ باللغويات والإعرابات وما أشبه ذلك.

ولهذا: عندما نُسْتَنْصَحُ عن كتب التفسير؛ ننصح بتفسير ابن كثير، وبتفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي؛ لأنهما أبعد عن التشقيقات. كثير من المفسرين في النواحي اللغوية؛ البيانية، والنحوية، وسر التقديم والتأخير، وما أشبه ذلك من الجوانب التي تَصْرِفُ العقل عن المعاني المقصودة للقرآن، لكن أصحاب التخصص والذين لهم -كما يُقال- تخصص، فهؤلاء الأمر في شأنهم -أو في حقهم- أوسع.

(ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته).

هذا معنًى جميل، ليسبق إلى قلوبهم وعقولهم ما ترجى لهم بركته، وتُرجى لهم منفعته. لتسبق هذه العلوم العقيدة الصحيحة والأحكام الشرعية تسبق إلى عقولهم، قبل أن يسبق إليها هموم الدنيا، وأطماع الدنيا، أو يسبق إلى عقولهم أفكار دخيلة وآراء سقيمة يتلقونها من هنا وهناك. فأشار المؤلف إلى أهمية وفضيلة السبق وعظيم أثر السبق؛ أي سبق الخير إلى القلوب.

(فأجبتك إلى ذلك، لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من عَلَّم دين الله أو دعا إليه. واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير).

يقول: (فأجبتك إلى ذلك): أجبتك إلى ما طلبت رجاء ثواب الله الموعود لمن تعلم دين الله وعلمه، ودعا إليه، وهكذا ينبغي أن يكون الغاية من التعلم والتعليم هو الاحتسابَ؛ احتسابَ ثواب الله؛ فإن هذا عليه المُعَوَّلُ؛ «مَنْ

صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا..»[٥٢]، «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا..»[٥٣] ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٥٤].

وَاعْلَمْ أَنَّ خَيْرَ الْقُلُوبِ أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ، وَأَرْجَى الْقُلُوبِ لِلْخَيْرِ مَا لَمْ يَسْبِقِ الشَّرُّ إِلَيْهِ، وَأَوْلَى مَا عُنِيَ بِهِ النَّاصِحُونَ وَرَغِبَ فِي أَجْرِهِ الرَّاغِبُونَ: إِيصَالُ الْخَيْرِ إِلَى قُلُوبِ أَوْلاَدِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَرْسَخَ فِيهَا، وَتَنْبِيهُهُمْ عَلَى مَعَالِمِ الدِّيَانَةِ، وَحُدُودِ الشَّرِيعَةِ؛ لِيُرَاضُوا عَلَيْهَا، وَمَا عَلَيْهِمْ أَنْ تَعْتَقِدَهُ مِنَ الدِّينِ قُلُوبُهُمْ، وَتَعْمَلَ بِهَا جَوَارِحُهُمْ؛ فَإِنَّهُ رُوِيَ أَنَّ تَعْلِيمَ الصِّغَارِ لِكِتَابِ اللهِ يُطْفِئُ غَضَبَ اللهِ، وَأَنَّ تَعْلِيمَ الشَّيْءِ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ.

وَقَدْ مَثَّلْتُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَنْتَفِعُونَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- بِحِفْظِهِ، وَيَشْرُفُونَ بِعِلْمِهِ، وَيَسْعَدُونَ بِاعْتِقَادِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ.

وَقَدْ جَاءَ أَنْ يُؤْمَرُوا بِالصَّلاَةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَيُضْرَبُوا عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَيُفَرَّقَ بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَلَّمُوا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ قَبْلَ بُلُوغِهِمْ؛ لِيَأْتِيَ عَلَيْهِمُ الْبُلُوغُ وَقَدْ تَمَكَّنَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ، وَأَنِسَتْ بِمَا يَعْمَلُونَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَارِحُهُمْ.

وَقَدْ فَرَضَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَلَى الْقَلْبِ عَمَلاً مِنَ الاِعْتِقَادَاتِ، وَعَلَى الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ عَمَلاً مِنَ الطَّاعَاتِ، وَسَأُفَصِّلُ لَكَ مَا شَرَطْتُ لَكَ ذِكْرَه بَابًا بَابًا؛ لِيَقْرُبَ مِنْ فَهْمِ مُتَعَلِّمِيهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى-. وَإِيَّاهُ نَسْتَخِيرُ وَبِهِ نَسْتَعِينُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا).

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه).

خير القلوب (أوعاها)؛ يعني أقبلها للخير، وأكثرها وعيًا وإدراكًا للخير. (واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير).

---

(٥٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابا من الإيمان (٣٨، ١٩٠١، ٢٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان (٣٧، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه..

(٥٤) النساء: ١١٤.

(واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه).

(أرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه): هذه تحتاج إلى وقفة، أرجى القلوب إلى الخير يعني أحراها بالخير، أحراها بالصلاح، أحراها بالمعاني الجميلة، بالاعتقادات الصحيحة والأعمال الصالحة أرجى القلوب للخير وأقربها للخير ما لم يسبق الشر إليه، القلوب الصافية الخالية، يستشهدون لهذا المعنى ببيت فيه جانب آخر لكن المقصود المعنى، يقول:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ❊❊❊ فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

يعني الإنسان الخالي عن الاعتقادات الباطلة إذا عُرِضَ عليه الخير؛ تَقَبَّلَه؛ لأن هذا هو مُوجِبُ الفطرة، يصبح على الفطرة، يقولون: فلان على الفطرة، فالقلوب مفطورة على حب الخير وعلى إيثار الحق. لكن إذا سبق إليها الشر؛ أفسد هذه الفطرة؛ «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(٥٥).

ولله الحمد الإنسان الذي يولد بين أبوين مسلمين تَقَبُّلُه للخير -إذا تفتح عقله- معروف وظاهر. لكن من يولد بين كافرين إذا بلغ؛ تغيرت الفطرة، فيحتاج إلى نقله من يهوديته ونصرانيته إلى جهد جهيد، فأرجى القلوب للخير وقبوله ووعيه ما لم يسبق الشر إليه.

(وأولى ما عُنِيَ بِهِ الناصحون ورغب في أجره الراغبون: إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين؛ ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة؛ ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل بها جوارحهم؛ فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر، وقد مثلت لك..).

(وأولى ما عُنِيَ به الناصحون ورغب في أجره الراغبون: إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين؛ ليرسخ فيها).

أولى ما عُنِيَ به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى أولاد المسلمين؛ ليرسخ فيها ويتمكن ويسبق الشر؛ لتسلم فِطَرُهم وتستقيم وتستنير بهذا الخير، وبهذا العلم، لتستنير بهذا العلم.

وهذا لا شك أنه من خير ما يُقَدَّمُ، تقديم الخير يعني العلم والأدب والتربية الصالحة.

---

(٥٥) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات(١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٤٧٥، ٦٥٩٩)، مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

وهذا الخير -كما تقدم- شاملٌ للأمور العلمية الاعتقادية، العقيدة، أو الأقوال الطيبة الصالحة، أو الأعمال الصالحة، فالخير الديني شاملٌ للمعاني العلمية للمسائل العلمية والاعتقادات الصحيحة وللأعمال الصالحة القلبية وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان.

(إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين، ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة؛ ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل بها جوارحهم؛ فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر).

قوله: (ليراضوا فيها) يعني من الرياضة والترويض؛ يعني ليُرَوِّضُوا ويَرْتَاضُوا على هذه الأخلاق، وهذه الآداب، وأداء هذه الواجبات. وأشار -بهذه المناسبة- إلى حديثين، أحدهما ضعيف والآخر موضوع كما نص على ذلك أهل العلم.

يقول: (وكما روي أن تعليم الأولاد يُطفئ غضب الرب، وأن التعليم في الصغر، كالنقش في الحجر)، ومعناهما، وخصوصا الثاني معناه صحيح؛ أن التعليم والتعلم في الصغر أثبت من التعلم في الكبر، وهذا أمر محسوس ومعروف من الواقع؛ لأن الشاب مداركه وملكاته وذهنه في قوته في حال قوته والعوائق والشواغل بعيدة منه، بخلاف الكِبَر، فالكبير أولاً: قواه الذهنية كقواه الجسدية قد وهنت وضعفت، والثاني: أنه قد امتلأ ذهنه بالشواغل، والذهن يقولون: مثل الإناء؛ يعني إذا امتلأ الإناء؛ لا تستطيع أن تضيف إلى ما فيه شيئا.

أما قوله: (إن تعليم الأولاد) يعني لأمور الدين وأمور الديانة يطفئ غضب الرب؛ فهو أيضا لم يصح، لكن قد يُستشهد له بأن هذا من نوع الصدقة، وفي الحديث: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ؛ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»[٥٦]. والصدقة بالعلم والتعليم وتعليم الصغار أعظم من الصدقة بالمال.

(كالنقش في الحجر).. الذي بعده.

(وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به، وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع ).

---

(٥٦) صحيح: أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، قال الترمذي: حسن صحيح، ابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة(٣٩٧٣). من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح.

يقول: (قد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون به)؛ يعني بينت لك مما طلبتَ مما يحتاج الولدان إلى تعليمه وتلقينه وتربيتهم وترويضهم عليه، مثلت لك، وبينت لك -من ذلك- ما يُرجى أن يَنتفعوا به ويعود عليهم بالخير والصلاح، ويَستشهد على مسيس الحاجة إلى تعليمِ الأولادِ أمورَ دينهم بالحديث المشهور المعروف: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[٥٧].

والصلاة ليست واجبة على الإنسان قبل بلوغه، لكن جاءت الشريعة بهذا؛ لأجل تهيئتهم، ولأجل أن يستعدوا ليكونوا مستعدين للقيام بما أوجب الله عليهم عند جَرَيَانِ قَلَمِ التكليف عليهم، فيُؤمرون بالصلاة، ويُؤَدَّبُون، يؤمرون بها ثلاث سنين بدون تأديب، وبالعشر يضربون؛ لأن الآن قد قَرُبَ، فيمكن أن يبلغ الإنسان وهو بالإحدى عشرة سنة، أو من الاثنتي عشرة سنة، شارف على البلوغ، ولهذه يُقال: إنه ناهز البلوغ؛ يعني قارب البلوغ، ابن عشر يكون قد ناهز البلوغ، يمكن يبلغ بالاحتلام.

ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: «وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»، فرق بين الأولاد الذكور وبين الذكور والإناث يعني ليس المراد فرقوا بين البنين والبنات، لا.. فرقوا بينهم، كل يكون له فراش، ويستقل عن الآخر هذا معنى التفريق، «فَرِّقُوا بَيْنَهُم فِي الْمَضَاجِعِ»، فأمر بأمرين عظيمين: الأمر بالصلاة والحمل عليها، وتجنيبهم دواعي الشر ومداخل الشيطان.

فالمؤلف يستشهد بهذا؛ لورود الشريعة بتربية الصغار وتعليم الصغار قبل البلوغ؛ ليستعدوا وليعتادوا الخير، وكما يؤمون بالصلاة يؤمرون بالصيام، يُنهون عن المنكرات، لا يقال: هذا صغير، بل يُنْهَوْنَ عن المنكر، وإن كانوا لو فعلوه؛ لم يأثموا، ولم يستوجبوا عقابًا، لكنهم يجب على الآباء أن يأمروهم ويَنْهَوْهم، وفي هذا تربية لنفوسهم وهي أهم من تربية أبدانهم بأنواع الأغذية وأسباب الوقاية.

( فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم).

---

(٥٧) حسن صحيح: أخرجه أحمد في المسند (٦٦٨٩)، أبو داود: كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو. قال الألباني: حسن صحيح.

(من قول)؛ يعني اعتقاد القول يطلق على الاعتقاد كما يقول الأئمة: "الإيمان قول وعمل"، قول القلب واللسان، وعمل الجوارح، عمل القلب والجوارح، هكذا ينبغي أن يتعلموا ما فرض الله عليهم من أمر الديانة من قول وعمل.

(من قول وعمل قبل بلوغهم؛ ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم).

هذا أمْر معروف في التربية؛ فإهمال الصغير وترك الحبل على الغارب له؛ يتصرف بنزواته ونزعاته وجهله، هذا فيه إضرار به وجِناية من وَلِيِّه جناية من وليه عليه. اليتيم حتى ولو كان يتيمًا بعض الناس يتحاشى من تربية اليتيم، لا.. حتى اليتيم مره بالصلاة واضربه عليها، وإن كان يتيمًا؛ فاضربه عليها، هذا من الإحسان إلى اليتيم، لا تقل: هذا يتيم يعني من باب الرحمة أتركه، لا.. هذا إساءة إليه، أنت تُسيء إليه بتركك لتربيته، عامِلْه بنحو ما تُعامل به أولادَك من وجوه وطرق التربية البدنية والروحية، والتربية الروحية، حتى إذا ارتاضت نفوسهم، وسكنت جوارحهم، وانقادت طبائعهم لِمَا كلفوا به؛ جاءهم البلوغ وهم مُهَيَّأون والحمد لله.

هل يحتاج المسلم الصغير الناشئ هذه مسألة الناشئ الذي وُلد على الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله، إذا بلغ يكلف أن ينطق الشهادتين؟ لا.. أبدا، قد حصل به النطق ولله الحمد. يشبهون هذا بمن توضأ قبل دخول الوقت، قبل أو تجب عليه الصلاة، هذا قد أتى بالشهادتين ولله الحمد، وصح إسلامه، فلا يحتاج إلى أن يجدد إسلامه إذا بلغ؛ لأنه قد جاء بالإسلام وأتى بالشهادتين ونطق بالشهادتين قبل وجوبها عليه.

(وَقَدْ فَرَضَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَلَى الْقَلْبِ عَمَلاً مِنَ الاِعْتِقَادَاتِ، وَعَلَى الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ عَمَلاً مِنَ الطَّاعَاتِ.

وَسَأُفَصِّلُ لَكَ مَا شَرَطْتُ لَكَ ذِكْرَه بَابًا بَابًا؛ لِيَقْرُبَ مِنْ فَهْمِ مُتَعَلِّمِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَإِيَّاهُ نَسْتَخِيرُ وَبِهِ نَسْتَعِينُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا).

أشار المصنف -كما تقدم- إلى تعلق أحكام الدين وأمور الديانة بالقلب، واللسان، والجوارح. وهذه المتعلقات منها ما هو فرض، ومنها ما هو مستحب. فالاعتقادات -مثلاً- منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، لكن معرفة اعتقاد أصول الإيمان على سبيل الإجمال واجب.

مثلاً: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، هذا فرض عين على كل مكلف، الإيمان بهذه الأصول على سبيل الإجمال، لكن معرفتها على سبيل التفصيل هذا فرض كفاية، هل كثير من المسلمين أو أكثر المسلمين يعرفون هذه الأصول تفصيلاً؟ لا، إنما يعرف هذا من وفَّقه الله لمزيد تدبر للقرآن، والتدبر للسنة، فيعرف من جوانب الإيمان بالله ما لم يعرفه العامة، ويعرف مما يتعلق بالملائكة. وكذلك الكتب، والرسل، واليوم الآخر مما لا يعرفه أكثر عوام المسلمين، وهكذا أعمال القلوب، وهكذا أعمال الجوارح منها ما هو فرض، ومنها ما هو مستحب.

والدين شامل، والرسول -عليه الصلاة والسلام- في حديث جبريل إنما ذكر الأصول؛ قال: «هَذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[٥٨]؛ يعني أصول الدين، الجوامع، أصول الاعتقاد الستة، وأصول الأعمال الخمسة، أصول الإسلام، «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». لكن تفصيل هذه الأصول بَيَّنَهَا الله في كتابه، والرسول بَيَّنَهَا في سُنَّتِه.

الصلاة مجملة في الحديث «شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَإِقَامُ الصَّلاَةِ»[٥٩]. الصلاة هذه الكلمة أصل، لكن هذه تحتاج إلى تفصيل، وتفصيلها منه ما بُيِّنَ في القرآن وهو قليل، وأكثره بَيَّنَهُ الرسول بسنته القولية والفعلية، ثم قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[٦٠]، وقس على هذا كما في الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[٦١].

وجملة من أحكام الحج مُبَيَّنَة في القرآن، وأكثرها إنما بَيَّنَهُ الرسول بالسنة، فحج -عليه الصلاة والسلام- وقال للناس: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[٦٢]، ونسأل الله أن يُبَصِّرَنا وإياكم بدينه، وأن يرزقنا الفقه فيه بمنه وكرمه، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه ورسوله.

---

(٥٨) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -سبحانه وتعالى- (٨) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-. والحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٥٩) متفق عليه: أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (٨، ٤٥١٥)، وأخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، (١٦) من حديث ابن عمر.

(٦٠) متفق عليه: أخرجه البخاري كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانو جماعة.... (٦٣١، ٦٠٠٨، ٧٢٤٦)، واللفظ له، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة (٦٧٤) من حديث مالك بن الحويرث.

(٦١) آل عمران: ٩٧.

يقول السائل: كيف نوصل الخير لقلوب أولاد المؤمنين عند تدريسهم في المدارس، لا سيما إن كانت المواد المدرسة لهم ليست من المواد الشرعية؟

الحمد لله، الموفَّق يستطيع يدخل وممكن أن توجههم التوجيه الصالح في ثنايا تدريسهم، في أول الكلام، وفي أول الدرس وفي آخر الدرس، وفي ثنايا الدرس، يعني ممكن الماهر يستطيع ينفذ إلى مقصوده، ويوظف العلم الذي هو يدرسه في خدمة الغاية المنشودة وهي إصلاح النشئ، يمكن ولله الحمد.

يقول السائل: قال المؤلف -رحمه الله: (وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب مالك). ماذا يريد المؤلف من إيراده هذه الجملة؟ وهل هو ينصر مذهبه على حساب المذاهب الأخرى؟

لا، أكثر أهل العلم يدرسون على مذهب، ولا يلزم من دراسته على مذهب أن يكون متعصبًا، المذموم هو التعصب، ويمكن أن نقول: إنه هذا هو ما دَرَسَه واشتهر في بلده، في بلده المغرب، المشهور هو مذهب الإمام مالك، كما أنه عندكم الآن المشهور مذهب الإمام أحمد فما الذي يدرسه الأولاد؟ يدرسون في الفقه نواقض الوضوء ثمانية، الخارج من السبيلين الخارج الفاحش النجس من الجسد، وزوال العقل، ومس الفرج، أو مس الذكر؛ قبلا كان أو دبرا.. إلخ، هذا على مذهب الإمام أحمد، وهل يناسب أن صغار الناشئين يقال لهم: هذا فيه خلاف، هذا يمكن بعدُ، يأتي دور التفصيل، وذكر الخلاف والمذاهب الأخرى بعدما يتقدم الطالب. أما الصغار؛ فما عندهم إلا أن يُلَقَّنُوا ويعلموا المذهب الشائع الذي عليه فتوى كثيرٍ من أهل العلم.

هذه النواقض التي ذكرتها منها ما يخالف فيه الإمام مالك، الإمام مالك ما يرى النقض بخروج الدم، فالمذموم هو التعصب، وكلمة على حساب المذاهب، لا، أبدًا ما في كلمة على حساب، هو يقرر ما يرى أنه هو المعروف والمشهور السائد في بلده.

وقلت لكم: إن هذا نظير ما تُدَرَّسُونه وتَدْرُسُونه في هذه البلد؛ نظرًا إلى أن المذهب الشائع والذي عليه يدرس الأكثرون هو مذهب الإمام أحمد، المذهب الحنبلي، والمذموم هو التعصب، والتقليد مع القدرة على معرفة الحق بدليله.

---

(٦٢) أخرجه مسلم كتاب الحج باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله -صلى الله عليه وسلم-: "لتأخذو مناسككم" (١٢٩٧) بنحوه، من حديث جابر -رضي الله عنه.

يقول السائل: لقد وقع الخلاف في بيع التقسيط، وما يسمى بالآجل منذ زمن بعيد، فما القول في هذا الأمر؟ وما معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا»؟

«مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ؛ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا»[٦٣] هذا مِنْ أحسن ما فُسِّرَ به أن تقول: خذ هذا بعشرة نقدًا أو بخمسة عشر نسيئة مؤجلاً، ويمشي بدون اختيار، هذا لا يجوز، هذا أصبح مترددا، احسم الموقف من الآن، من الآن إما عشرة نقدًا نأخذه بنقد، وإلا تقول: أنا آخذه بخمسة عشر مؤجلة.

وأما بيع التقسيط فما أعلم فيه بأسا، يعني أبيعك السلعة التي تساوي عشرة آلاف، أقول: بعتكها باثني عشر ألف، لكن تسدد لي كل شهر خمسمائة ريال مثلاً، هذا البيع بالتقسيط، وهو من نوع البيع إلى أجل.

والدين نوعان: بيع إلى أجل، وَسَلَم، السَّلم يُقَدَّمُ فيه الثمن، وتؤجل فيه السلعة، والبيع إلى أجل، تُقَدَّمُ فيه السلعة، ويتأخر الثمن بعده.

(بَابُ مَا تَنْطِقُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَتَعْتَقِدُهُ الأَفْئِدَةُ مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ

مِنْ ذَلِكَ الإِيمَانُ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ: أَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلهَ غَيْرُهُ، وَلاَ شَبِيهَ لَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ، وَلاَ وَلَدَ لَهُ، وَلاَ وَالِدَ لَهُ، وَلاَ صَاحِبَةَ لَهُ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ.

(باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات).

هذا هو الباب الأول من كتاب "الرسالة" بعد الخطبة والمقدمة -كما تقدم- هذا هو الباب الأول، وخصه بالمسائل الاعتقادية المسائل العِلْمِيَّة، يقال لها: العلمية، والاعتقادية.

(باب ما تنطق به الألسن وتؤمن به القلوب من أمور الديانات)؛ يعني باب ذكر وبيان ما يجب اعتقاده، والإقرار به، اعتقاده بالقلب، والإقرار به باللسان؛ فإن مسائل الدين قسمان: مسائل علمية اعتقادية، ومسائل عملية.

---

(٦٣) حسن: أخرجه أبو داود: كتاب الإجارة باب فيمن باع بيعتين في بيعة (٣٤٦١)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه. قال الألباني في صحيح سنن أبي داود": حسن.

فمسائل -مثلاً- الأسماء والصفات، وما يتعلق بالملائكة، والإيمان باليوم الآخر، هذه مسائل اعتقادية؛ يعني الواجب فيها الإيمان والتصديق، واليقين الجازم، ثم الإقرار وإظهار ذلك باللسان؛ فإنه لا يظهر ما في القلب إلا باللسان، فاللسان هو الذي يعبر عما في القلب.

إذن: المسائل الآتية كلها على هذا المنوال، المسائل الآتية كلها مسائل علمية اعتقادية قولية، وكما تقدم لكم أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، يعني اعتقاد القلب وإقرار اللسان. فالداخل في الإسلام أولاً يؤمن بإلهيته -سبحانه وتعالى- ويؤمن برسوله، وينطق، ينطق الشهادتين، لا يتحقق دخوله في الإسلام إلا بأن ينطق الشهادتين، فإن نطق بهما وهو معتقد لِمَا شهد به؛ فهو المسلم، وإن نطق بهما وهو في الباطن على خلاف ذلك؛ فهو المنافق.

(باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات).

(من واجب أمور الديانات)؛ يعني من المسائل التي يجب اعتقادها، ويجب النطق والإقرار بها، فتجب على العبد ظاهرًا وباطنًا، يجب عليه الإيمان بها ظاهرًا وباطنًا.

(من ذلك الإيمان بالقلب، والنطق باللسان: أن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له).

إلى آخره. (من ذلك: الإيمان بالقلب، والنطق باللسان) بأنه -تعالى- الإله الذي لا إله إلا هو، هذا هو أصل الدين، أصل الدين لا إله إلا الله، أصل دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هو الإيمان بأنه الإله الحق وحده دونما سواه، فلا إله غيره؛ كما قال -تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[٦٤].

والإله بمعنى المعبود، فلا إله إلا الله: لا معبود إلا الله، والمقصود: لا معبود بحق، وإلا؛ فالمعبودات بالباطل كثيرة، لا معبود بحق إلا الله، فالله هو المعبود بحق، وكل معبود سواه باطل، فلا معبود بحق إلا الله، فهذه كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وليس كما يقول الغالطون من المتكلمين الذين المشركون من العرب أعلم منهم بمعنى لا إله

(٦٤) البقرة: ١٦٣.

إلا الله؛ كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٦٥] ونبه على ذلك في "كشف الشبهات"، فكثير من المتكلمين يقول: لا إله إلا الله؛ يعني: لا خالق إلا الله، لا قادر على الاختراع إلا الله، هذا غلط، لا شك أن كلمة لا إله إلا الله تتضمن هذا المعنى، لكن ليس هو المقصودَ، فهل مَنْ قال: لا خالق إلا الله يدخل في الإسلام؟! أليس المشركون الأولون كانوا مقرين بهذا المعنى؟! كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، ولم يدخلهم في دين الإسلام، لا بد من التنبه لهذا الفرق، فرق بين المعنيين، فكلمة التوحيد تتضمن توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، لكنَّ المقصود الأول منها: هو التوحيد الذي فيه النزاع، وفيه الخصومة بين الرسل وأممهم، وكلمة التوحيد نجدها في القرآن بألفاظ كثيرة: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٦٦] ، ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ﴾[٦٧] ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٦٨]، ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾[٦٩]، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٧٠].

وجاءت في هذه المواضع ونحوها بصيغة الحصر، الحصر الذي يكون بالنفي والإثبات، لا إله إلا هو، وتارة يأتي بصيغة "إنما"؛ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[٧١].

ثم ذكر الشيخ جملة مما يجب تنزيه الله -تعالى- عنه، من الشبيه والنظير والولد والصاحبة؛ فإنه -تعالى- لا شبيه له يقول: (لا شبيه له، ولا ولد له، ولا والد ولا صاحبة، ولا شريك). هذا كله جاء التصريح بنفيه، ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾[٧٢]، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾[٧٣]، وهذا في مواضعَ كثيرةٍ، وجاء التصريح ببعضه في

---

(٦٥) الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي الحنبلي النجدي المصلح الكبير. ولد ونشأ وتعلم في بلدة العيينة، ورحل في طلب العلم إلى نواحي نجد ومكة، حتى صار عالما. أنكر المنكر، وقمع الله به البدع. اتحد مع آل سعود في توحيد الجزيرة العربية، وتوحيد الرب -تعالى- حتى أيدهما الله. له "كتاب التوحيد"، و"الأصول الثلاثة" وغيرهما كثير. ولد سنة خمس عشرة بعد المئة والألف، وتوفي سنة ست ومئتين بعد الألف. انظر: إسلامية لا وهابية للدكتور/ ناصر بن عبد الكريم العقل (ص: ٢٣)، والأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٧).

(٦٦) البقرة: ٢٥٥.

(٦٧) آل عمران: ١٨.

(٦٨) الأنبياء: ٨٧.

(٦٩) طه: ١٤.

(٧٠) الصافات: ٣٥.

(٧١) البقرة: ١٦٣.

(٧٢) المؤمنون: ٩١.

سورة الإخلاص: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٧٤)، فتضمن هذا النفي؛ نفي الوالد والولد والكفء، وذلك يتضمن كمال أَحَدِيَّتِه، كمال الاسمين المتقدمين: أحديته، وصَمَدِيَّتِه، فهو الأحد الذي لا نظير له ولا شريك، وهو الصمد الذي تَصْمُدُ إليه الخلائق، ولا تَجَزُّؤَ في ذاته -سبحانه وتعالى-، والشبيه والنظير والمثل ألفاظ متقاربة.

وجاء في القرآن نفي الكفْؤ والندّ والسّميّ؛ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٧٥)، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٧٦)، ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَندَادًا﴾(٧٧)؛ فهو -سبحانه وتعالى- لا سميَّ له، ولا كفء له، ولا ندَّ له، لا ندَّ له في أي شأن من شؤونه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٧٨) لا في ذاته لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهو -تعالى- يوصف بالإثبات والنفي.

والمؤلف بدأ بذكر النفي، وكان المناسب أن يبدأ بالإثبات، بإثبات أسمائه ونفي ما يضادها، على حد قوله: (الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم). ولكن ربما نقول إنه في بعض المواضع يأتي يتقدم النفي، لكن سورة الإخلاص تقدم فيها الإثبات على النفي، وكما في آية الكرسي.

نعم، لا إله إلا هو..

(من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان، أن الله إله واحد لا إله غيره).

(لا إله غيره)؛ يعني تقول: لا إله غيره، لا إله إلا هو.

(ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء).

---

(٧٣) الأنعام: ١٠١.

(٧٤) الإخلاص: ٣-٤.

(٧٥) مريم: ٦٥.

(٧٦) الإخلاص: ٤.

(٧٧) البقرة: ٢٢.

(٧٨) الشورى: ١١.

(لا شريك له) لا شريك له هذه عامة، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾(٧٩)، فليس له شريك في الملك، فالملك كله له، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾(٨٠)، فلا أحد يملك ذرة في السماوات والأرض ولا شركًا في ذرة.

فلا شريك له في ملكه، ولا شريك له في شيء من خصائصه، ولا شريك له كذلك في إلهيته، فلا شريك له في ربوبيته، ولا في إلهيته، ولا في أسمائه وصفاته، فلا رب غيره، ولا إله سواه، ولا يستحق أحدٌ شيئًا من صفاته، فلا يشاركه أحد فيما يجب له من الصفات، ونفي ما يجوز عليه، فيما يختص به مما يختص بوجوبه في الصفات الذاتية، أو جوازه؛ كالصفات الفعلية، أو ما يختص بامتناعه؛ كصفات النقص.

(لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلاَ لآخِرِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ، وَلاَ يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الْوَاصِفُونَ، وَلاَ يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ، وَلاَ يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَّةِ ذَاتِهِ، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ).

يقول: (ليس لأوليته ابتداء، وليس لآخريته انتهاء) هذا يتضمن الإشارة إلى اسمين من أسمائه الحسنى: الأول، والآخر، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وجاء تفسيرهما على لسان أعلم الخلق به، وذلك في قوله في الدعاء: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»(٨١). فالمؤلف يقول: مما يجب الإيمان به: أنه الأول، وليس لأوليته ابتداء، وأنه الآخر، وليس لآخريته انتهاء.

وكما عَبَّرَ الطحاوي عن ذلك بقوله: "قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء"، وهذان الاسمان يدلان على دوامه أزلاً وأبدًا، فيدلان على أنه -تعالى- واجب الوجود، ومعنى واجب الوجود أنه الذي لا يجوز عليه الحدوث، فلم يسبق وجوده عدم، ولا يجوز عليه العدم، فهو واجب الوجود، لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم، فهو المتقدم على كل شيء، والباقي بعد كل شيء، «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»، فهو دائم أزلاً

---

(٧٩) الفرقان: ٢.

(٨٠) سبأ: ٢٢.

(٨١) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة.

وأبدًا، وما يبقى من الخلق كالجنة والنار؛ فبقاؤهما بإبقائه -سبحانه-، فبقاؤهما ليس ذاتيًّا لهما، أما بقاؤه -سبحانه وتعالى-؛ فهو ذاتي له.

(ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون).

(لا يحيط بكنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون)، والمعنى: أنه لا يدرك أحدٌ كُنْهَ صفاته، ولهذا امتنع التكييفُ، فلا يجوز التفكر في كيفية ذاته، أو كيفية صفاته، كيف ينزل؟ كيف يجيء؟ كيف يغضب؟ كيف يتكلم؟ كل هذا ممتنع، لا يجوز التفكير فيه، ولا السؤال عنه كما أنكر الأئمة ذلك وقالوا: "والكيف مجهول" أنكروا على من يسأل عن كيفية الاستواء وغيره من الصفات.

(لا يبلغ كنه صفاته الواصفون، ولا يحيط بأمره)؛ يعني بحقيقته وشأنه، شأنه لا يحيط به المتفكرون، فلا يجوز التفكّر في ذاته، وقد جاء في الأثر: «تَفَكَّرُوا فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ»[٨٢]. تَفَكَّرْ في آيات الله الدالة على قدرته، وعلمه وحكمته ورحمته، ولا تُفَكِّرْ في ذاته؛ فإنه لا سبيل، لا سبيل إلى الوصول إلى معرفة كُنه ذاته، أو كنه صفاته، ولهذا قال أهل العلم: إنه يجب الإيمان بما وَصَفَ الله به نفسه، أو وَصَفَه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، فيجب الإيمان بصفاته، بإثبات ما أثبته الله لنفسه، ونفي مماثلته لخلقه، ونفي العلم بالكيفية، ويجب أن نعلم أن لصفاته ولذاته كيفية، لكن لا سبيل للعباد إلى معرفتها، فالمنفي هنا هو العلم (لا يبلغ كنه ذاته الواصفون).

إذن: ذاته لها كُنْهٌ، ولها صفة، ولها حقيقة، ولكن لا يبلغ ذلك الواصفون، (ولا يحيط به ولا يصل إلى ذلك المتفكرون).

(يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته).

نعم، يعتبر المتفكرون في آياته الكونية، يعتبرون ويهتدون إلى معرفة الله بالتفكر في مخلوقاته، في آياته الكونية، وفي آياته المتلوة يتدبرون، فمعرفة الله لها طريقان: التفكر في آياته الكونية، والتدبر لآياته الشرعية، كلاهما طريق يُعرف به العباد ربهم؛ كما قال -سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي

---

(٨٢) حسن: أخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (٢٢)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٦١٨). من حديث ابن عباس موقوفا. حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨٨).

الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٨٣).

ويذكر الله الآيات الكونية ويعقبها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٨٤)، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(٨٥)، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٨٦) ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٨٧)، وهذا كثير في القرآن؛ ينبه الله العباد إلى ما في آياته الكونية السماوية والأفقية والأرضية والنفسية؛ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾(٨٨)، ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(٨٩)، فيعتبر أولو الألباب والمتفكرون المتذكرون يفكرون ويعتبرون بآياته ولا يتفكرون في ذاته، وهذا هو الواجب.

(ولا يتفكرون في ماهية ذاته).

(ولا يتفكرون في ماهية ذاته) يعني في حقيقة ذاته، في كنه ذاته، فالمعنى متقارب، في ماهيته، في حقيقته، في كيفيته، في كُنْهِه، المعنى متقارب.

(ولا يتفكرون في ماهية ذاته) لكن نؤمن بأن له -تعالى- ذاتا لا تشبه الذوات، وأنه قائم بنفسه، غني بذاته عن كل ما سواه، فلا يفتقر إلى شيء بوجهٍ من الوجوه، هو الغني بذاته، وبنفسه من جميع الوجوه.

(ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم).

هذا بعض آية الكرسي، (ولا يحيط): لا يحيط العباد، الإحاطة غير مطلق علم، فنحن نرى الشمس ولا نحيط بها رؤيةً، ونعلم أشياء كثيرة مما أخبرنا الله به من علوم الغيب، ونعلم أشياء كثيرة من الأخبار الواقعة في هذه

---

(٨٣) آل عمران: ١٩٠-١٩١.

(٨٤) الرعد: ٣.

(٨٥) الروم: ٢٢.

(٨٦) الروم: ٢٣.

(٨٧) الروم: ٢٨.

(٨٨) فصلت: ٥٣.

(٨٩) الذاريات: ٢٠ - ٢١.

الدنيا، لكننا لا نحيط بها، فالشيء لا يُحاط به، ولا تدرك حقيقته إلا بمشاهدته، أو مشاهدة نظيره. فالله -تعالى- أخبر بأن العباد لا يحيطون بشيء من علمه في آية الكرسي؛ ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾(٩٠).

(لا يحيطون بشيء من علمه)؛ يعني من معلوماته إلا بما علمهم، (لا يحيطون بشيء من علمه) يعني مما يَعْلَمُه، لا يحيطون بشيء مما يعلمه إلا بما شاء، هذا يفسرُه: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾(٩١)، وقال الخضر لموسى: «مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللهِ إِلاَّ كَمَا نَقَرَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ»(٩٢). علم الخلائق -الملائكة والإنس والجن- علمهم كلهم لا نسبة له إلى علمه -سبحانه وتعالى.

(ولا يحيطون بشيء من علمه)، وقيل: لا يحيطون بشيء من علم شأنه وذاته وصفاته؛ يعني العلم المتعلق به، لا يحيطون بشيء من ذلك إلا بما شاء. فالعباد لا يعلمون من شأن ربهم، والعلم المتعلق به إلا ما شاء، والمعنيان صحيحان، فلا علم للعباد بذاته وصفاته إلا ما علمهم، ولا علم للعباد بشيء مما يعلمه إلا بما شاء، فالعباد أبدًا.. ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(٩٣)؛ فلا علم لأحد، الملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم، الأنبياء لا يعلمون إلا ما علمهم، يقول الله لسيد الخلق: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٩٤).

فما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- من العلم العظيم، إنما كان بتعليم من الله -تعالى- علمه، بالوحي الذي أنزله، من الكتاب والحكمة.

(٩٠) البقرة: ٢٥٥.

(٩١) البقرة: ٣٢.

(٩٢) متفق عليه: أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة الكهف، باب ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا﴾ زمانا وجمعه أحقاب (٤٧٢٥- ٤٢٢٧)، مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس.

(٩٣) النحل: ٧٨.

(٩٤) النساء: ١١٣.

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[٩٥]. الكرسي أصح ما قيل في تفسير الكرسي أنه موضع قدم الرب، وقيل: العرش، وقيل: العلم، (وسع علمه)، لكن المرجَّح عند المحققين: أن المراد الكرسي موضع القدمين، وهو مخلوق عظيم، وهو غير العرش.

(وسع كرسيه) يدل على سعة الكرسي وعظمه، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[٩٦]، وجاء في الأحاديث: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلاَّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاَةٍ»[٩٧].

(ولا يؤوده)؛ يعني لا يشق عليه، ولا يُعجزه حفظ هذا العالم العلوي والسفلي، ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾[٩٨] من يمسكهما؟ لا يمسكهما أحد من بعده، ﴿وَيمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[٩٩]، فهو الحافظ للعباد، الحافظ لهذا الوجود، لولا حفظ الله لهذا العالم؛ لدك بعضه بعضًا، فهذا العالم السماوات والأرض كلها مستقرة على وفق ما قدره -سبحانه وتعالى- وهذه الأجرام العلوية من الكواكب ماضية في مجاريها بقدرته -سبحانه وتعالى- إلخ.

(ولا يؤوده) لا يشق عليه ولا يعجزه ولا يثقله حفظهما، وختم الله آية الكرسي باسمين عظيمين كما بدأها باسمين آخرين، بدأها باسمه "الحي القيوم"، وقد قيل: إنها الاسم الأعظم، وختمها باسميه "العلي العظيم" واسمه العلي يدل على أن له العلوَّ بكل معانيه؛ علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، هو العظيم الذي لا أعظم منه -سبحانه وتعالى-، ولا ندرك كنه عظمته كما هو الشأن بسائر صفاته.

---

(٩٥) البقرة: ٢٥٥.

(٩٦) البقرة: ٢٥٥.

(٩٧) صحيح: أخرجه الإبانة لابن بطة (١٣٦)، ابن أبي شيبة في العرش وما روي فيه (٥٨) من حديث أبي ذر بنحوه، قال الألباني في السلسلة (١٠٩): صحيح.

وأخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (٣١)، واللفظ له. الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٦١١٨).

(٩٨) فاطر: ٤١.

(٩٩) الحج: ٦٥.

(وهو العلي العظيم) فاسمه العلي هو من جملة ما يستدل به على علو الذات، وهو يدل على أنواع العلو الثلاثة؛ علو القدْر، وذلك بالاستحقاق لصفة الكمال، وعلو القهر، وهو قهره لكل هذا الوجود، فكل الوجود في قبضته وتحت ملكه وسلطانه وقدرته -سبحانه وتعالى. (وهو العلي العظيم).

(الْعَالِمُ الْخَبِيرُ، الْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

(العالم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير).

هذه جملة من أسماء الله، فبعدما ذكر جملةً مما يجب تنزيه الله عنه لا شبيه له، ولا نظير له، ولا كفء له، ولا نِدَّ له، ولا كذا، ولا صاحبة ولا ولد له، ولا والد، ولا شريك، وذكر (ولا يحيطون بشيء من علمه) إلى آخره، (ولا يؤوده حفظهما).

ذكر جملة من أسمائه -تعالى- التي يجب إثباتها له، وهذا على سبيل المثال، فهو العلي العظيم كما في هذه، وهو الحي القيوم، وهو -سبحانه وتعالى- عليم خبير كما وصف نفسه، عليم، وهذا العموم هو أعم عموم تتصوره العقول، ﴿إِنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١٠٠)، فيعلم ما كان ما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون.

وقد تَمَدَّحَ -سبحانه وتعالى- بهذا الاسم، واسمه الخبير أخص من اسمه العليم، يدل على خبرته بخفايا الأمور وبغايات الأمور، بغاياتها وبخفاياها؛ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١٠١)، ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُّ﴾(١٠٢)، فالله فصَّل في القرآن تفصيلاً كبيرًا كما سيشير المؤلف إلى بعض ذلك، أعد الكلمات للأسماء.

(العالم الخبير).

(العالم) في الحقيقة لم يأت وصفه بهذا اللفظ هكذا، بل الوارد العليم، أنا قلت: العليم ﴿إِنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١٠٣)، ﴿إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١٠٤)، ﴿إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾(١٠٥)، أما عالم فلم تأت إلا مُضَافَةً، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ

(١٠٠) العنكبوت: ٦٢.

(١٠١) النمل: ٧٥.

(١٠٢) آل عمران: ٢٩.

(١٠٣) الأنفال: ٧٥.

وَالشَّهَادَةِ﴾[١٠٦]، ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[١٠٧]. فإذا دعوت الله؛ فقل: يا عليم، يا من هو بكل شيء عليم، ولا تقل: يا عالم. قل: يا عالم الغيب والشهادة. فكان المناسب أن يقول: العليم.

(العالم الخبير) ليته قال: العليم الخبير.

(العالم الخبير، المدبر القدير).

(المدبر القدير) أما (القدير)؛ فجاء مطلقًا ومقيدًا، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٠٨]، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[١٠٩]، فيصح أن تقول: الله قدير، إن الله على كل شيء قدير، أما (المدبر)؛ فلا يعد اسمًا، لكنه حق هو المدبر، ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[١١٠]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[١١١]

(السميع البصير).

(السميع البصير) هذا في القرآن كثير، وهو يدل على صفتين لله، قاعدة: "إن كل اسم متضمن لصفة" فهو السميع والسمع صفته، فتقول: الله -تعالى- ذو سمع، وهو ذو بصر، في الحديث: «لَوْ كَشَفَهُ؛ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[١١٢]، وقالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها: «سُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ

---

(١٠٤) لقمان: ٣٤.

(١٠٥) النساء: ٣٥.

(١٠٦) الأنعام: ٧٣.

(١٠٧) الحشر: ٢٢.

(١٠٨) البقرة: ٢٠.

(١٠٩) فاطر: ٤٤.

(١١٠) السجدة: ٥.

(١١١) يونس: ٣.

(١١٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله لا ينام" وفي قوله "حجابه النورلو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (١٧٩) من حديث أبي موسى -رضي الله عنه-.

الأَصْوَاتَ»(١١٣)، فسمْعه واسع لجميع الأصوات، يسمع أصوات المسبحين والداعين والمتكلمين بأنواع الكلام بما في ذلك أقوال الكافرين، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(١١٤) تهديد له، وأخبر عن سماعه للكلام العادي؛ ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾(١١٥) فسمْعه واسعٌ لجميع الأصوات، والإيمان بهذه الصفات الواجب الأول هو الإيمان والاعتقاد، وينتج عن ذلك الآثار العملية، والإيمان بهذه الصفات يورث تعظيم الله، ومراقبته وتقواه، فإذا استشعر العبد أن الله يسمعه ويراه، وأن علمه محيط به، يعلم ما في نفسه؛ أوجب له ذلك الشعورُ الوقوفَ عند حدود الله، والمبادرةَ إلى الواجبات، فلهذا الإيمان آثارٌ عملية، لكن الأصل هو وجوب الإيمان بذلك، الإيمان بذلك، ولهذا الإيمان القلبي أثر على الجوارح.

(السميع البصير) هذا كثير في القرآن ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(١١٦).

(العلي الكبير) تقدم، هذا بمعنى ما جاء في آية الكرسي.

(وَأَنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بِذَاتِهِ)

(وأنه فوق عرشه المجيد بذاته).

(وأنه) وأنه هذا معطوف على أول الجملة، ومن ذلك الإيمان بأنه كذا، بأن الله إله واحد، (وأنه) هذه الجملة معطوفة على أول الكلام.

(وأنه فوق عرشه بذاته)؛ يعني ومما يجب الإيمان به أنه -تعالى- فوق عرشه، وقال بذاته؛ لأن هذا هو محل الافتراق بين أهل السنة والمبتدعة، المبتدعة يقولون: الله فوق العرش، لكن الفوقية عندهم فوقية معنوية، ليست فوقية ذات، فهم يثبتون علو القدر، لكنّ محل النزاع هو علو الذات وفوقية الذات، والله -تعالى- له الفوقية بكل معانيها، وله العلو بكل معانيه، ذاتًا وقدرًا وقهرًا، فالمؤلف -رحمه الله- أكد قوله: (وأنه فوق العرش المجيد) ؛ أكد ذلك وحرره بقوله: (بذاته) فوق العرش بذاته، هو نفسه -سبحانه وتعالى- فوق العرش.

---

(١١٣) صحيح: أخرجه النسائي كتاب الطلاق باب الظهار (٣٤٦٠)، ابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨) وقال الألباني في صحيح سنن النسائي: صحيح.

(١١٤) آل عمران: ١٨١.

(١١٥) المجادلة: ١.

(١١٦) النساء: ٥٨.

إذن؛ ليس حالاً في المخلوقات كما يقوله أهل الحلول، بل هو لا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا يحيط به مكان، بل هو فوق جميع المخلوقات، فوق العرش، والعرش سقف المخلوقات.

وقلت: إن "مجيد" صفة للعرش؛ لأنه هو المناسب في هذا السياق، والآية في سورة البروج لها قراءتان: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴾ صفة للعرش، ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ صفة لله، والعرش قد جاء وصفه في القرآن بالعظم والكرم وبالمجد في هذه الآية على إحدى القراءتين.

فالمؤلف يقول: (وأنه)؛ يعني ومما يجب الإيمان به أنه -تعالى- فوق العرش المجيد بذاته، وهذا مما يتميز به -رحمه الله- في هذا الموضع هذا موضع تميز عن الفرق، فإن الأشاعرة يُثبتون المعاني المتقدمة، المعاني المتقدمة يثبتونها، وما ذكره من نفي هم ينفونه، ينفون الشبيه والنظير وما إلى ذلك، والولد والوالد، والصاحبة والشريك، ويثبتون أنه -تعالى- سميع بصير، وأنه ذو علم وسمع وبصر.. إلى آخر ما ذكر. هذا كله مما يتفق عليه الأشاعرة.

لكن هنا هذا موضع افتراق؛ فعلو الله بذاته فوق العرش هذا تفترق فيه الطوائف، فالجهمية والمعتزلة ومن وافقهم في بعض باطلهم؛ كالأشاعرة مثلاً ينفون علوه -تعالى- على خلقه، واستواءه على عرشه، والمؤلف هنا يثبت علوه -تعالى- وفوقيته، واستواءه على العرش، وهذا مما أوجب أن يُذكر هذا العالم -رحمه الله- بأنه من أهل السنة؛ لأن هذا موضع الافتراق وموضع التميز.

(وهو في كل مكان بعلمه).

نعم، هو فوق العرش بذاته، فوق العرش المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه، علمه في كل مكان، علمه محيط بكل شيء، الله فوق العرش وهو مع العباد؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ولاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ولاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ ولاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾[117].

فنصوص العلم ونصوص المعية تدل على أنه -تعالى- وإن كان فوق العرش؛ فعلمه محيط، وسمعه واسع لجميع الأصوات، وبصره نافذ إلى المخلوقات، وعلمه محيط بكل شيء، يعلم ما يُسِرُّ العباد وما يعلنون، يعلم

(١١٧) المجادلة: ٧.

الخفيات، لا تخفى عليه خافية؛ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾[118]، وعلمه في كل مكان؛ يعني علمه محيط بكل مكان، فلا يغيب عنه شيء.

إذن: هو مع العباد، هو نفسه -تعالى- فوق العرش، هو مع العباد بسمعه وبصره وعلمه -سبحانه وتعالى.

وقد وضح العلماء معنى المعية -المعية العامة- بأنها معية العلم، ليس معهم بذاته بمعنى أنه مختلط بهم. يقول شيخ الإسلام[119]: "فإن هذا لا تُوجبه اللغة، وهو خلاف ما فَطرَ الله عليه الخلقَ، وما أجمع عليه المسلمون".

(خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

هذا تفصيل لما أجمله في قوله: (وعلمه في كل مكان) فيه نوع من التفصيل.

(خلق الإنسان): أخذا من الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾[120]، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه. سبحان الله! هذا من أخفى الأمور ما توسوس به النفوس، وأخفى مما في الغيب مما لم يخطر بالبال، يعني ما توسوس به النفس يعلمه الإنسان، لكن ما لم يرد على قلبك، هذا ما يعلمه أحد.

(خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه)؛ يعني ما تحدثه به نفسه، وفي النفس أفكار وهموم وإرادات تخطر بالبال فيها الهم والإرادة والعزم، كلها من مراتب عمل القلب: الهم، ثم الإرادة، ثم العزم، وما يرد على القلب من الخواطر التي يجب أن يرفضها عقل المسلم، فترد عليه خواطر.

والخواطر أنواع: خواطر خير، وخواطر شر، وساوس يلقيها الشيطان، ولكن من رحمة الله أنه لا يُؤاخذ العبد إلا فيما يترتب عليه عملٌ أو كلام؛ كما جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[121]. أما خواطر عابرة لم يترتب عليها عمل، ولا يترتب عليها كلام؛ فلا تضر العبد.

---

(١١٨) آل عمران: ٢٩.

(١١٩) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيميّة الحرّاني، ثم الدمشقي، الحنبلي، الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد. برع في العلوم الإسلامية والآلية، وقمع الله به أهل الضلال، ونصر به أهل السنة. ولد سنة إحدى وستين وست مئة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مئة. وله من المؤلفات: الواسطية، ومنهاج السنة. انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١ ترجمة ٥٣١)، والوافي بالوفيات (٧/ ١٠ ترجمة ٦١٩).

(١٢٠) ق: ١٦.

(خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه)، قال: (وهو أقرب إليه من حبل الوريد) هذا من نفس الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، وهذه الآية اختلف فيها المفسرون، فقيل -وهو أكثر ما جاء عن المفسرين من السلف: إن المراد قربه -تعالى- بملائكته الموكلين بالعبد بحفظ عمله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[١٢٢]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وأن هذه الآية نظير قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾[١٢٣]، ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾[١٢٤]، وأن المراد قرب الملائكة، ملائكة التوفي الموكلين بتوفي أرواح العباد، وعلى هذا فلا تدل الآية على القرب العام، على إثبات القرب العام.

وقيل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ المراد: قربه -تعالى- نفسه، وأن هذا القرب هو قربه بعلمه كما قيل ذلك في معيته.

والمصنف مشى على هذا المعنى الأخير؛ حيث قال: (وهو أقرب إليه من حبل الوريد). ظاهر هذا التعبير أنه يثبت القرب العام، ولا إشكال على كل تقدير ولله الحمد، لكن الأول هو الراجح في تفسير الآية وهو المأثور عن أكثر السلف، وأن المراد قربه -تعالى- بملائكته كآية الواقعة، نعم.

(وهو أقرب إليه من حبل الوريد): الوريد الذي هو ملتصق بعنق الإنسان، قرب كما قال -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، وَإِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا»[١٢٥]، لكن ذاك نوع آخر من القرب، وهو قربه -تعالى- من الداعين ؛له كما قال -تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١٢٦].

---

(١٢١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق (٥٢٦٩)، مسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب (١٢٧) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(١٢٢) الانفطار: ١٠- ١١.

(١٢٣) الواقعة: ٨٥.

(١٢٤) الواقعة: ٨٣- ٨٥.

(١٢٥) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله -تعالى-: وكان الله سميعا بصيرًا (٧٣٨٦)، مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى -رضي الله عنه.

(١٢٦) البقرة: ١٨٦.

فمن أهل العلم من يقسم القرب كتقسيم المعية إلى عام وخاص، معية عامة، ومعية خاصة وكذلك القرب، ومن العلماء من يقول: إن القرب إنما جاء خاصا، وهو قربه -تعالى- من عابديه ومن داعيه.

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

هذا من تفصيل متعلق العلم، فهو -تعالى- يعلم كل شيء، ويعلم ما في السماوات والأرض، ومن ذلك أن علمه محيط بهذه الأشياء الدقيقة الكثيرة التي لا يعلم عددها ولا يحصيها إلا الله.

(وما تسقط من ورقة) من ورقة نكرة في سياق النفي، أي ورقة معك من أوراق الأشجار.

(ما تسقط من ورقة) ماذا يسقط من الأوراق من أشجار الأرض؟ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١٢٧)، هذه الآية قد تضمنت إثبات إحاطة علمه بالجزئيات، وإحاطة كتابه كتاب القدر ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ كقوله -تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾(١٢٨).

يقول السائل: العلماء يعبرون عن الله بالذات، فهل هناك دليل على ذلك من القرآن أو السنة؟

سبحان الله العظيم!! هذا مثل موجود، هل في الكتاب والسنة كلمة "موجود" أن الله موجود، هذا تفكير قاصر، ذات بمعنى حقيقة، نعم، ممكن نقول لك: النفس: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ﴾(١٢٩) النفس معناها الذات.

يقول: هل يجوز التوسل بصفات الله -سبحانه وتعالى-؟

التوسل بالصفات المناسبة، التوسل برحمته، التوسل والاستعاذة بكلماته وبعزته، تستخير علمه «بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ»(١٣٠)؛ فلا بد من مراعاة التناسب بين المتوسَّل به والمتوسَّل إليه، أفيجوز أن تقول: اللهم

---

(١٢٧) الأنعام: ٥٩.

(١٢٨) فاطر: ١١.

(١٢٩) آل عمران: ٢٨.

(١٣٠) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب: الدعاء عند الاستخارة (٦٣٨٢) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما.

ارحمني، اللهم بعقابك للكافرين ارحمني؟!! اللهم ارحمني فإنك شديد العقاب؟!! لا بد من مراعاة المناسبة، المناسب للطلب. فالرسول -عليه الصلاة والسلام- توسل بأسمائه الأربعة بربوبيته العامة؛ «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ»(١٣١). توسل بكل هذه الأسماء إلى آخره، «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ».. إلى قوله: «اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»(١٣٢)؛ لأن ما تقدم من الصفات يتضمن كمال غناه، ويتضمن جوده وكرمه وملكه لكل شيء.

يقول: هل يجوز صلاة الفريضة وأنا مسافر في السيارة؟

الأصل أنه لا يجوز، لكن لو قُدِّرَ أن الإنسان ابتلي..، سؤالك هذا يمكن أن يَرِدَ في الطائرة بحكم أنه لا سبيل إذا كانت الرحلة طويلة ساعات عشر ساعات المسافة؛ فلا بد أنك تصلي في الطائرة، أما السيارة؛ فلا، السيارة تُوقف، لكن يقع بعض الناس مسكين ضعيف أنه يركب في حافلات النقل، ويكون السائق ليس من المصلين، يكون خبيثا لا يهتم للصلاة، فيمسك الخط ولا يبالي، فيبقى الفرد الواحد إذا لم يكن معهم مُعينون، أما إذا كان الناس متعاونين؛ يجب أنهم يوقفون السائق إجباريا، ولا يجوز أن يتركوه كما يشاء، وقف أما قد يكون يقع بعض الناس.. والركاب مثل السائق، لا يهتمون. فنعم إذا كان الوقت ما يتأتى تأخير الصلاة لجامعٍ مثلاً الظهر ممكن تؤخرها للعصر، المغرب ممكن تصليه إذا كان يبغي أن يتوقف في وقت العشاء تأخرها، لكن إذا كان.. افرض أنه الفجر، الفجر ما تقبل الجمع، فتصلي في السيارة، تصلي وأنت على الكرسي والحمد لله، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(١٣٣) هذه هي الصورة التي يمكن نقول إنها يجوز صلاة الفريضة في السيارة، أما السؤال بهذا الإطلاق.

يقول: هل القول: لا معبود بحق في الوجود إلا الله تفسير صحيح؟

أي نعم تفسير صحيح، لكن كلمة في الوجود زائدة، ما لها لازمة.

---

(١٣١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(١٣٢) سبق تخريجه.

(١٣٣) التغابن: ١٦.

يقول: ذكرتم قول الطحاوي[١٣٤] -رحمه الله: "أن الله قديم بلا ابتداء"[١٣٥] هل يوصف الله -عز وجل- بالقدم؟

أي والله، نعم يوصف بالقدم المطلق، لكن قديم ليس اسمًا من أسمائه.

(على العرش استوى، وعلى الملك احتوى).

يقول المؤلف في ذكره لبعض ما يجب الإيمان به من أسماء الله وصفاته يقول: (على العرش استوى)؛ يعني يجب الإيمان بأنه -تعالى- (على العرش استوى)؛ كما أخبر بذلك في سبع آيات من القرآن، في ستة مواضع فيها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، وفي طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[١٣٦]، وقد دلت هذه الآيات على أن استواءه على العرش كان بعد خلق السماوات والأرض ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[١٣٧].

واستواؤه على العرش -والعرش أعلى المخلوقات- يتضمن علوه -تعالى- على جميع المخلوقات، ولهذا تعد الآيات والأحاديث الدالة على استوائه -تعالى- على العرش هي من جملة أدلة العلو، والاستواء على العرش جاء تفسيره بعبارات عدة عن السلف على وارتفع واستقر وصعد وكلها معاني متقاربة.

وأهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة؛ يقولون: الله -تعالى- فوق العرش كما تقدم، وأنه فوق العرش المجيد بذاته، يثبتون بأنه -تعالى- فوق العرش، وأنه استوى على العرش، يؤمنون بذلك على المعنى المعقول المفهوم من استوى؛ لأن الله خاطب عباده بلسان عربي مبين.

---

(١٣٤) الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك، الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف، من أهل قرية طحا من أعمال مصر. مولده في سنة تسع وثلاثين ومئتين. بدأ حياته شافعيًا ثم تحول إلى الحنفية وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. برز في علم الحديث وفي الفقه، وتفقه بالقاضي أحمد بن أبي عمران الحنفي، وجمع وصنف. قال ابن يونس: كان ثقة ثبتا فقهيا عارفا لم يخلق مثله. له مؤلفات جياد؛ منها: "شرح مشكل الآثار"، و"شرح معاني الآثار". مات سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧ ترجمة ١٥)، والجواهر المضية (١/ ٢٧١ ترجمة ٢٠٤).

(١٣٥) العقيدة الطحاوية (ص١٧).

(١٣٦) طه: ٥.

(١٣٧) الأعراف: ٥٤

ولهذا لما سئل الإمام مالك -وغيره- عن كيفية الاستواء؛ قيل له: كيف استوى؟ قال: "الاستواء معلوم"؛ يعني معناه معلوم، ليس لفظا مجهول المعنى لا، الاستواء معلوم، له معنى يعلمه أهل اللسان العربي "الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"(١٣٨).

إذن: أهل السنة والجماعة يثبتون العلو والاستواء، وهما معنيان بينهما تناسب، كما تقدم أن الاستواء يتضمن العلو، لكن العلو صفة ثابتة لازمة للرب، يعني هي صفة ذاتية، والاستواء صفة فعلية، والعلو: يقال على جميع المخلوقات فيه عموم، تقول: الله عال على جميع خلقه، لكن في الاستواء لا تقل: إنه مستوٍ على الأرض، أو مستوٍ على السماء، تقول: مستوٍ على العرش، ومختص بالعرش.

ومن الفروق التي ذكرت: أن الاستواء طريق العلم به هو السمع؛ يعني النصوص، النقل. أما العلو؛ فطريق العلم به السمع والعقل، فعلوه على خلقه ثابت بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

وأنكرت المعطلة الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم كالأشاعرة أنكروا علوه -تعالى- بذاته، وأنكروا حقيقة الاستواء كما تقدم. وزعموا أن ذلك يدل على حصره -تعالى- في مكان، ويستلزم أن يكون كيت وكيت، وأن يكون جسمًا، وأن الأجسام متماثلة، فيلزم من ذلك التمثيل شبهاتٌ.

وقد كشفها العلماء أهل السنة ولله الحمد، وهي شبهات داحضة، وكل ما عارض الحق فهو باطل، وما أخبر الله به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله حق، فكل ما عارضه فهو باطل، فالاستواء يجب الإيمان به كما جاء في جوابِ الإيمان مالك وغيره، فيجب إثبات حقيقة الاستواء لله، مع نفي مماثلته لاستواء المخلوق، المخلوق يوصف بالاستواء ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾(١٣٩)، ﴿فَإِذَا اسْتَوَيتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾(١٤٠).

لكنِ استواؤه -تعالى- لا يماثل استواء المخلوق، كما أن ذاته لا تماثل ذوات المخلوق، ولا نعلم ولا نعقل كنه استوائه كما تقدم، أنه لا يبلغ كنه صفاته الواصفون، فيجب الإثبات ونفي التمثيل ونفي العلم بالكيفية، هذا ما يقوم عليه مذهب أهل السنة، وهو -تعالى- مستوٍ على العرش، ولا يلزم من ذلك ما يلزم في استواء المخلوق على

---

(١٣٨) صحيح: أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥١)، قال الألباني في مختصر العلو ص: ١٣٢: صحيح.

(١٣٩) الزخرف: ١٣.

(١٤٠) المؤمنون: ٢٨.

المخلوق، استواء المخلوق على المخلوق يستلزم حاجته إليه وافتقاره إليه، وأما الله؛ فهو مستوٍ على العرش مع غناه عن العرش، فإنه هو الممسك للعرش وما دون العرش، لا بد من هذا الفرق.

فعُلِمَ: أن وصفه بالاستواء هو إثبات الاستواء لا يستلزم محظورًا، فاستواء المخلوق على المخلوق يستلزم خصائص المخلوق، أما استواء الرب؛ فلا يستلزم شيئا من خصائص المخلوق.

يقول المؤلف -رحمه الله: (على العرش)؛ يعني الله -تعالى- على العرش استوى.

(وعلى الملك احتوى): احتوى: ما علمت أنه وردت في شيء من الآثار شيء من الأحاديث أو الآثار المأثورة عن الصحابة والتابعين والأئمة، لكنها جاءت على لسان بعض أهل العلم مثل هذا المصنف ابن أبي زيد، ومثل عبد القادر الجيلاني[١٤١] -رحمهما الله-، ومعناه حق؛ يعني أنه -تعالى- على العرش استوى، وهو مالك الملك كله، له الملك كله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[١٤٢].

وقد لاحظتَ أن الله يَقْرِنُ بين ذكر استوائه وذكر ملكه للسماوات والأرض؛ كما في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾[١٤٣] يعني إذن هو على العرش استوى، وقد أحاط بالخلق كلهم وبكل موجود أحاط به مُلْكًا، فالكل ملكه، له الملك مطلقا، له الملك كله.

ويمكن يشبه هذا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ إلى قوله: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١٤٤].

يقول المؤلف في هذه العبارة: (له الأسماء الحسنى)؛ يعني قبل أن نتجاوز.

---

(١٤١) الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء، محيي الدين، أبو محمد، عبد القادر بن أبي صالح عبد الله ابن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد. مولده بجيلان سنة إحدى وسبعين وأربع مئة. قدم بغداد شابا، فتفقه على أبي سعد المخرمي. كان فقيها صالحا دينا خيرا، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة. قال الذهبي: الشيخ عبد القادر كبير الشان، وعليه مآخذ في بعض أقاويله ودعاويه، والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه. من مصنفاته: "الغنية لطالب طريق الحق"، و"الفتح الرباني". توفي عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمس مئة. انظر: السير (٢٠/ ٤٣٩ ترجمة ٢٨٦)، والذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ١٨٧ ترجمة ١٤٤).

(١٤٢) طه: ٦.

(١٤٣) طه: ٥-٦.

(١٤٤) الأعراف: ٥٤.

الذين ينفون حقيقة الاستواء منهم من يتأوله، وهم أهل التأويل، ومنهم من يفوض، أهل التفويض يقولون: هذه الآيات لا نتكلم فيها، وهي لا تدل على معنى إنما نتعبد بتلاوتها لا غير، هذا سبيل أهل التفويض من النفاة، ويقابلهم أهل التأويل الذين يفسرون الآيات بتفسير يخرجونها عن ظاهرها ويصرفونها بما يَدَّعُونه من التأويلات عن ظاهرها، كتفسير استوى باستولى، استولى على العرش يعني استولى على العرش، وهناك مناقشات لأهل السنة للمعطلة، ولأهل التأويل منهم ولأهل التفويض، وكل من المذهبين -أعني التفويض والتأويل- كلاهما باطل، ومبني على باطل؛ لأن كلاًّ من المذهبين مبنيّ على نفي الصفات، فأهل التأويل وقعوا في التحريف، وأهل التفويض وقعوا في التجهيل، يسميهم شيخ الإسلام في الحموية: "أهل التجهيل"(١٤٥) لأن مذهبَهم يتضمن تجهيل الرسول والصحابة بمعاني نصوص الصفات.

يقول المصنف: (له الأسماء الحسنى والصفات العلى)، لله الأسماء الحسنى وهذا من الإثبات المجمل، إثبات مجمل؛ لأنها كلمة عامة (له الأسماء الحسنى)، قال الله -تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(١٤٦) ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(١٤٧)، ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾(١٤٨).

فله الأسماء الحسنى، كل الأسماء الحسنى هي ثابتة له، لكن هذه الأسماء منها ما أطلع الله عليه من شاء من العباد، ومنها ما استأثر بعلمه كما في أحاديث دعاء الهم: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»(١٤٩).

وأسماؤه -تعالى- ليست محصورة في تسعة وتسعين كما في الحديث: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلاَّ وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١٥٠). قال العلماء: إن هذا ليس فيه حصر لأسمائه في هذا العدد، بل فيه الإخبار عن أن من

---

(١٤٥) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٤).

(١٤٦) الحشر: ٢٤.

(١٤٧) طه: ٨.

(١٤٨) الأعراف: ١٨٠.

(١٤٩) صحيح: أخرجه أحمد في المسند (٤٣١٨، ٣٧١٢)، ابن حبان في صحيحه (٩٧٢)، الحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠). من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٩): صحيح.

أسمائه تسعة وتسعين اسما، من شأنها ومن صفتها ومن فضلها: أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن تكون له أسماء أخرى، فيجب التنبه لذلك، فأسماؤه كثيرة منها ما علمه لمن شاء من عباده، ومنها ما استأثر بعلمه.

(وله الصفات العلى) الصفات هي المعاني الثابتة القائمة به -سبحانه وتعالى-، من علمه، وسمعه، وبصره، وكلامه، وأفعاله؛ كنزوله، واستوائه على العرش، ومحبته أنه يحب، وغضبه، إلى آخره ورضاه.

لكن يجب أن يعلم أن كل اسم متضمنٌ لصفته، فهو العليم، والعلم صفته، فاسم العليم تضمن العلم، والحي يتضمن الحياة، السميع يتضمن السمع، والبصير يتضمن البصر وهلم، وهلم.

لكن ليس كل صفة يمكن أن يشتق له -تعالى- منها اسمٌ، هناك مثلاً كونه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[151]، ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[152] ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾[153]، فلا تقل: إنه -تعالى- المحب والراضي والكاره، وما إلى ذلك، فكل اسم متضمن لصفة، فاسمه العليم يدل على ذاته وصفة العلم، وأما الأفعال والصفات الأخرى؛ فلا يلزم من ذلك أن يشتق له منها أسماء.

(له الأسماء الحسنى) الحسنى اسم تفضيل، الحسنى مثل الأحسن، (له الأسماء الحسنى)؛ يعني هذا أكمل من أن يقال: له الأسماء الحسنة، الأحسن هو البالغ في الحسن غايتَه.

(له الأسماء الحسنى) فأسماؤه متضمنه لصفات الكمال على وجه الكمال، والصفات العلى يعني من حيث المعنى صفات عالية ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾[154]. هذا من الإثبات الْمُجْمَلِ له المثل الأعلى، يعني له الوصف الأكمل والأطيب والأفضل، له المثل الأعلى في جميع النعوت، في جميع نعوته، فله المثل الأعلى -سبحانه وتعالى.

(لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً، وَأَسْمَاؤُهُ مُحْدَثَةً، كَلَّمَ مُوسَى بِكَلامِهِ).

ما زال بصفاته -سبحانه وتعالى-، سبحانه أن تكون أسماؤه مخلوقة، وصفاته محدثة، ما زال بصفاته.

---

(١٥٠) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا (٧٣٩٢)، مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الللہ تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(١٥١) المائدة: ٥٤.

(١٥٢) المائدة: ١١٩.

(١٥٣) التوبة: ٤٦.

(١٥٤) الروم: ٢٧.

(ما زال) هذا فعل يدل على الاستمرار في الماضي، ما زال ولا يزال، كما يقول الطحاوي: "ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلُ من صفته، وكما كان بصفاته أزلية، كذلك لا يزال عليها أبدية". فصفاته لم تزل، يعني لم يزل عليمًا ولا يزال عليمًا، فليس لعلمه بداية ولا نهاية، ولم يزل حيًّا قيومًا، ولا يزال كذلك، ولم يزل سميعًا بصيرًا، ولا يزال كذلك، ولم يزل قديرًا، لم تحدث له قدرة بعد أن لم يكن قادرًا؛ بل لم يزل على كل شيء قدير، ولا يزال كذلك، ولم يزل عزيزًا والعزة صفته، ولا يزال كذلك، وهذا في الصفات الذاتية ظاهر. أما الصفات الفعلية؛ ففيها تفصيل؛ لأنها تابعة لمشيئته، فجنس الفعل وبعض أنواع الفعل ممكن أن تقول: الله -تعالى- لم يزل فعالاً لما يريد، فكونه فعالا هذا صفة لازمة لذاته، لم يزل فعالاً يعني قادرًا على الفعل، فعالاً لما يريد، فما أراد أن يفعله؛ فعله؛ لأنه لا يُعْجِزُه شيء، ولا يمنعه شيء مما أراده -سبحانه وتعالى.

وكذلك صفة الكلام هي الصفة الذاتية الفعلية؛ إذ تقول: الله لم يزل متكلمًا إذا شاء، لم يكن عاجزًا عن الكلام، أو غير متكلم ثم صار متكلمًا، بل لم يزل متكلمًا إذا شاء، ينبغي التقييد بكذا. أما أنواع الفعل مثل الاستواء؛ فلا تقل: الله لم يزل مستويًا على العرش؛ فالأصل محدث مخلوق، فلا يتصور أن تقول: إنه -تعالى- لم يزل مستويًا على العرش، تقول: لم يزل فعالاً لما يريد، والاستواء من أفعاله من أنواع فعله، وكذلك المجيء يوم القيامة من أفعاله، وكذلك النزول كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فهذا.

يقول المصنف: (لم يزل بجميع صفاته): لم يزل؛ يعني متصفا بجميع صفاته.

(تعالى أن تكون أسماؤه مخلوقة، وصفاته محدثة): هذا قلت لكم ما ينبغي من التفصيل؛ الصفات الفعلية نوعها في الجملة قديم، وأفراده حادثة؛ مثل الكلام، يقول أهل العلم المحققون: إن الكلام قديم النوع حادث الآحاد، تكليمه لموسى قديم.

اسمعوا؛ لأن كلمة قديم تعني ما لا بداية له، تكليمه لموسى إنما حصل في وقته، تكليمه للأبوين في وقته، تكليمه لأهل الموقف يكون يوم القيامة، فليس قديما، لكن نوع الكلام قديم.

وأهل الكلام والمبتدعة عندهم اضطراب في موضوع الصفات الفعلية منهم من ينفي الصفات الفعلية كما ينفي غيرها، ينفي؛ يقول: إنه لا تقوم به الصفات الفعلية، ومنهم من يثبتها لكن يقول: إنها لازمة فيجعل الصفات الفعلية لازمة لذاته؛ مثل الغضب، والرضى، والمحبة، والبغض.

فمن الطوائف من ينفيها كما ينفي غيرها من الصفات؛ مثل الأشاعرة وإن أثبتوه، والصفات التي تعرفونها فإنهم ينفون حقائق هذه الصفات، ثم أهل التأويل منهم من يفسرونها إما بالإرادة، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات، وآخرون يقول: إنه -تعالى- يوصف بهذه الصفات لكنها لازمة لذاته، لا تتعلق بها المشيئة، وهذا المشهور عن ابن كُلاَّبٍ(١٥٥) وأصحابه.

(كَلَّمَ مُوسَى بِكَلاَمِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ، لاَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلاَلِهِ).

يقول: (كلم موسى): في هذا تقرير لإثبات كلام الله، وأهل السنة والجماعة يُثبتون الكلام كما يثبتون سائر الصفات، يقولون: إن الله كلم ويكلم، وقال ويقول، وأنه يتكلم إذا شاء بما شاء وكيف شاء، ويستشهدون بالنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة؛ ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾(١٥٦)، ويقولون: إن كلام الله قائم به، وليس بمخلوق، وأنه يتكلم بصوت، ولهذا جاء وصْف كلامه بالنداء ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾(١٥٧)، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾(١٥٨)، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾(١٥٩).

فيقول المؤلف: (كلم موسى): الله كلم موسى يوم كَلَّمَه، الله كلم موسى مرتين: عند إرساله، وعندما واعده. التكليم الأول لم يكن عن ميعاد، على غير ميعاد، والتكليم الثاني عن ميعاد ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾(١٦٠) إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾(١٦١)، كلم موسى بكلامه الذي هو صفةُ ذاته؛ أي كلام

---

(١٥٥) هو: رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، أبو محمد، عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم. وكان يلقب كلابا؛ لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته. وأصحابه هم الكلابية، لحق بعضهم أبو الحسن الاشعري، وكان يرد على الجهمية. صنف في التوحيد، وإثبات الصفات، وأن علو الباري على خلقه معلوم بالفطرة والعقل على وفق النص. من مصنفاته: كتاب "الصفات"، و"خلق الأفعال". كان حيا قبل الأربعين ومئتين. انظر: السير (١١/ ١٧٤ ترجمة ٧٦)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٩٩ ترجمة ٦٥).

(١٥٦) النساء: ١٦٤.

(١٥٧) مريم: ٥٢.

(١٥٨) الأعراف: ٢٢.

(١٥٩) القصص: ٦٢.

(١٦٠) الأعراف: ١٤٢.

(١٦١) الأعراف: ١٤٣.

قائم بذاته كغيره؛ فإن الصفة لا بد أن تقوم بالموصوف، هذا هو المعقول، كلمه بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا بكلام مخلوق كما يقول المعتزلة والجهمية؛ يقولون: إن كلام الله مخلوق، الله لا يقوم به الكلام، فكلامه مخلوق.

وتفريعًا على هذا قالوا: القرآن مخلوق، هذا تفريع، لأنّ الأصل الله لا تقوم به الصفات، الفرع الأول: أنه لا يَقوم به الكلام، إذن: لا يتكلم، الفرع الذي بعده: أن كلام الله مخلوق، يعني تكليمه لموسى مخلوق، كلامه الذي كلم به موسى مخلوق، خلق الله كلامًا في الشجرة فسمعه موسى، وقس على هذا الفرع الذي بعده القرآن مخلوق، وهي القضية التي وقعت بسببها الفتنة والمحنة وثَبَّتَ الله من ثبته من أهل السنة، وحفظ الله دينه.

فعبارة المؤلف جيدة؛ حيث قال: (كلم موسى) في إثبات الكلام لله، بكلام هو صفة ذاته ليس بمخلوق، يعني كأنه يقول خلافًا لمن زعم أن كلام الله مخلوق، وأن القرآن مخلوق.

(وتجلى للجبل فصار دكًّا من جلاله).

(وتجلى للجبل): ظهر للجبل، تجلى ظهر للجبل فجعله دكًّا، فهو -تعالى- محتجب بالنور الذي هو حجابه، ويتجلى إذا شاء لمن شاء ولما شاء.

وقد دلت النصوص على أنه يتجلى يوم القيامة، ويظهر للناس، ويراه الناس، يراه المؤمنون، قيل: ويراه الكافرون أيضا، يتجلى للناس وفي الجنة يتجلى لأهل الجنة ويرونه، سبحان الله، سبحان الله، لا إله إلا الله، سبحان الله.

(تجلى للجبل)؛ أي قدرا من التجلي، فجعل الجبل دكًّا، ساخ ولم يستقر، وقد قال الله لموسى: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾[١٦٢]، فلما رأى موسى هذا المشهد هذا الجبل العظيم صار دكًا وانساخ؛ خرَّ موسى صَعِقًا، صعق وغاب عقله من هول المشهد، فلما أفاق ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فكأن المؤلف بهذا يشير إلى إثبات الرؤية وأن الله يَظهر لمن شاء ويتجلى لمن شاء، ويراه من شاء إذا شاء، وقد أخبر الله في كتابه أن الوجوه الناظرة تنظر إلى ربها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١٦٣] وأن الكفار يحجبون عنه ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[١٦٤]؛

---

(١٦٢) الأعراف: ١٤٣.

(١٦٣) القيامة: ٢٢ - ٢٣.

إذن: المؤمنون لا يحجبون بل ينظرون إليه ويرونه ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾[١٦٥]، فكأن المؤلف بهذه الجملة يشير إلى إثبات الرؤية.

(وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلاَمُ اللهِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدَ، وَلاَ صِفَةً لِمَخْلُوقٍ فَيَنْفَدَ).

وأن القرآن هذا تخصيص للقرآن؛ لأنه كما دَلَّكَ في الجملة السابقة على أن كلامه -تعالى- ليس بمخلوق، كذلك القرآن ليس بمخلوق، فالقرآن كلامه، حقيقة تكلم به، وليس بمخلوق كما يقول المبطلون من الجهمية والمعتزلة.

القرآن كلام الله منزل من عند الله، غير مخلوق على قول هؤلاء يصير القرآن مثلَ سائر الكلام، مثل سائر الكلام، كلام الناس مخلوق، وكلام الملائكة مخلوق، وكلام الجن مخلوق، فكلام المخلوق مخلوق، وكلام الخالق ليس بمخلوق، كعلمه وسمعه وبصره، والقرآن كلامه، كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ويذهب.

(ولا صفة لمخلوق فينفد): ليس بمخلوق ولا صفة لمخلوق، كلام الله ليس بمخلوق، ولا صفة لمخلوق.

كلام الله ليس بمخلوق، ولا صفة لمخلوق، بل هو صفة له -تعالى-، تكلم به وسمعه جبريل، والله يُكلِّم من شاء، ومن كَلَّمَه؛ سمعه كما سمع موسى. فموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة، لكن من وراء حجاب. فالقرآن كلام الله مُنَزَّلٌ غير مخلوق؛ خلافا للجهمية والمعتزلة.

(ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد)؛ قال الله -تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[١٦٦].

فكلام الله لا نهاية له، لا أزلاً ولا أبداً؛ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾[١٦٧].

---

(١٦٤) المطففين: ١٥.

(١٦٥) المطففين: ٢٣.

(١٦٦) الكهف: ١٠٩.

(١٦٧) لقمان: ٢٧.

(وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنَا. وَمَقَادِيرُ الأُمُورِ بِيَدِهِ، وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ، عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَجَرَى عَلَى قَدَرِهِ، لاَ يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ وَلاَ عَمَلٌ إِلاَّ وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُهُ بِهِ، ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١٦٨)، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيَخْذُلُهُ بِعَدْلِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَيُوَفِّقُهُ بِفَضْلِهِ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ. تَعَالَى اللهُ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ، أَوْ يَكُونَ لأَحَدٍ عَنْهُ غِنًى، أَوْ يَكُونَ خَالِقًا لِشَيْءٍ. أَلاَ هُوَ رَبُّ الْعِبَادِ، وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدِّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَآجَالِهِمْ).

في هذه الجملة انتقال من ذكر أسماء الله وصفاته إلى الكلام في أصل من أصول الإيمان، وهو الأصل السادس وهو الإيمان بالقدر، فالمؤلف في هذه العبارة يقرر مذهب أهل السنة والجماعة، فالإيمان بالقدر هو الأصل السادس كما جاء في جواب النبي -عليه الصلاة والسلام- في حديث جبريل؛ قال: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١٦٩).

إذن: من الإيمانِ الإيمانُ بالقدر؛ يعني الإيمان بأن كل شيء بقدر، وأن الله قد قدر مقادير كل شيء، فكل ما في هذا الوجود فإنه بقدر الله، والخير والشر بقدر الله، والقدر يطلق على فعل الرب وهو تقديره لمقادير الأشياء، ويطلق على الشيء المقدر فتقول للحادث المعين: هذا قدر، يعني هذا مقدَّر من إطلاق المصدر على اسم المفعول، هذا قدر، وهذه لغة المسلمين إذا شهدوا أمرا قالوا: هذا قدر، يعني هذا مقدَّر، وله -تعالى- الحكمة في أقداره.

والإيمان بالقدر لا بد فيه من أربعة أصول، لا يكون الإنسان مؤمنا بالقدر إلا بها:

الأصل الأول: الإيمان بعلم الله السابق بكل شيء، بعلم الله السابق القديم، بعلمه القديم بكل شيء، بما في ذلك أفعال العباد من طاعاتهم ومعاصيهم، ﴿أَنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١٧٠).

الأصل الثاني: الإيمان بكتابة المقادير؛ بأن الله قدَّر مقادير الأشياء، وكتب ذلك في أم الكتاب، اللوح المحفوظ، وقد جمع الله بين هذين في غير آية، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهَّ يَسِيرٌ﴾(١٧١)، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ

---

(١٦٨) الملك: ١٤.

(١٦٩) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، والإسلام، والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -سبحانه وتعالى- (٨)، من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما.

(١٧٠) البقرة: ٢٣١.

(١٧١) الحج: ٧٠.

حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١٧٢]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[١٧٣]، ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[١٧٤].

الأصل الثالث: الإيمان بعموم مشيئة الله، وأنه لا خروج لشيء عن مشيئته، فما شاء؛ كان، وما لم يشأ؛ لم يكن.

فهذا الوجود كله حاصل وموجود بمشيئته -سبحانه وتعالى- وقدرته ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾[١٧٥] بما في ذلك أفعال العباد؛ فهي واقعة أيضا وموجودة وحاصلة بمشيئته؛ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[١٧٦]، ﴿يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾[١٧٧]، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[١٧٨]، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[١٧٩] ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[١٨٠].

الأصل الرابع: الإيمان بعموم خلقه؛ يعني أنه خالق كل شيء، ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[١٨١]، الله خالق كل شيء، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١٨٢] فهذه أربعة، لا يتحقق الإيمان بالقدر إلا بهذه الأصول.

وضل في القدر طائفتان: الجبرية الذين أثبتوا القدر ولكنهم سلبوا أفعالَ العباد، وقالوا: العباد لا فعل لهم، ولا مشيئة ولا قدرة، فالعباد يتحركون ويتصرفون كالحركات اللا إرادية؛ كحركة المرتعش والنائم، وحركة

---

(١٧٢) الأنعام: ٥٩.

(١٧٣) فاطر: ١١.

(١٧٤) الحديد: ٢٢.

(١٧٥) الإنسان: ٣٠.

(١٧٦) البروج: ١٦.

(١٧٧) الحج: ١٦.

(١٧٨) فاطر: ٨.

(١٧٩) الشورى: ٤٩.

(١٨٠) الشورى: ١٢.

(١٨١) الزمر: ٦٢.

(١٨٢) القمر: ٤٩.

الريش في مهب الريح، هؤلاء اسمهم جبرية، وهو مذهب باطل شرعًا وعقلاً وحسًّا، ولا يستقيم معه أمرُ دينٍ ولا دنيا.

ويقابل أولئك: القدريةُ النفاةُ الذين ينفون القدر، وهم طائفتان: غلاة ينفون المراتب الأربعة كلَّها، فيزعمون أن الله ما علم، لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، وبالضرورة أن ذلك لم يُكتب، وينفون عموم المشيئة وعموم الخلق. ومتوسطوهم يُثبتون العلم والكتاب، لكن ينفون عموم المشيئة، فكل القدرية النفاة يُخرجون أفعال العباد عن مشيئة الله وقدرته وخلقه.

فعندهم: أن العباد هم الخالقون لأفعالهم، وأن الله لا يقدر على أن يجعل المؤمن كافرا أو الكافر مؤمنا والعاصي مطيعًا والمطيع عاصيا، بل ولا يجعل القاعد قائما أو القائم قاعدا.. وهكذا وهكذا الأفعال؛ لأن أفعال العباد هم مستقلون بها.

فهاتان طائفتان متقابلتان، وأهل السنة والجماعة آمنوا بالقدر بكل مراتبه، وآمنوا بأن العباد فاعلون حقيقةً، وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم، طاعاتهم ومعاصيهم.

لعل هذا خلاصة القول في هذا الأصل، وأدلة الحق في هذا ظاهرة في كتاب الله، إثبات شمول علمه وكتابته للمقادير وعموم مشيئته وعموم خلقه. ونعيد نص عبارة المؤلف للتطبيق على ما ذُكِر.

(والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره).

(بالقدر خيره وشره): كأنه يريد الإيمان بتقدير الخير والشر بتقدير الله، فالخير والشر الواقع في الوجود هو بتقدير من الله، الإيمان بتقديره -تعالى- لكل شيء خيرا كان أو شرا حلوا كان أو مرا، يجب الإيمان بالقدر خيره وشره، والقدر الذي هو فعل الرب تقديره وقضاؤه وحكمه هذا لا شر فيه، هو عدل وحكمة وهو محمود على كل أفعاله -سبحانه وتعالى.

لكن الشر إنما يكون في المخلوقات في المفعولات، فخلقه إبليسَ شر وجنوده شر، وهكذا الأشياء الضارة الكونية؛ كالحيات والعقارب فيها شر، لكنْ خلْق الله لهذه المخلوقات الضارة والشريرة خلقه لها لحكمة، إذن خلقه -تعالى- ومشيئته لها هذا عدل وحكمة، وهو محمود على ذلك، له الحكمة البالغة، علمنا ذلك أو لم نعلمه، لكننا نعلم علما إجماليًّا ونؤمن إيمانا مجملاً بأنه -تعالى- حكيم، لا يخلق شيئا عبثًا، ولا يخلق شيئا إلا لحكمة هو أعلم بها.

(والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه).

(مصدرها) الأمور كلها هو مالكها بيده؛ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[١٨٣] ومصدرها عن حكمه وقضائه ومشيئته.

(ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره).

(علم كل شيء قبل كونه) هذه المرتبة الأولى: وهي الإيمان بعلم الله السابق، بكل شيء.

(لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١٨٤]، يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله).

وفي هذا إثبات المشيئة، وهي المرتبة الثالثة، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[١٨٥] والآيات الدالة على تعلق المشيئة بالموجودات كثيرة كما أشيرَ إلى بعضها.

(فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد).

يعني: المكلفون قد علم الله ما هم عاملون من طاعات ومعاصٍ، قد سبق علمه وكتابه بذلك، وكل ميسر، وقد سئل النبي -عليه الصلاة والسلام: هل ما يعمله الناس قد فُرغ منه وجرت به الأقلام؟ أم هو فيما يُستأنف ويستقبل؟ قال: «بَلْ فِيمَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ وَجَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ». قيل له: إذن؛ أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[١٨٦]

فمن كان من أهل السعادة؛ فهو ميسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة؛ فييسر لعمل أهل الشقاوة، وتلا الآيتين ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى

---

(١٨٣) الملك: ١.

(١٨٤) الملك: ١٤.

(١٨٥) النحل: ٩٣.

(١٨٦) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه...(٢٦٤٨) من حديث سراقة بن مالك به. وفي الباب من حديث علي بن أبي طالب، وابن عباس.

* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[١٨٧] فكل ميسر لما خلق له من شقاوة وسعادة، فمن كان من أهل السعادة؛ فالله ييسره لعمل أهل السعادة فيصير من السعداء، ومن كان من أهل الشقاوة ييسر لعمل أهل الشقاوة فيكون شقيًا.

(تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد): هذا فيه الرد على القدرية النفاة الذين يقولون: إن أفعال الله ليست بمشيئة الله، فمضمون كلامهم أن الله يكون في ملكه ما لا يريد.

ولهذا قال أهل السنة: إن قول القدرية يتضمن تعجيزَ الرب، تعجيزه أنه عاجز، فلا يقدر أن يهدي ضالا ولا أن يضل مهتديًا، ولا يتصرف في شأن العباد، وفي أفعالهم.

(تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد)؛ يعني ما لا يشاؤه -سبحانه وتعالى.

والإرادة نوعان: إرادة كونية، وهي بمعنى المشيئة، وإرادة شرعية وتتضمن المحبة، وفرَّق العلماء؛ فمن شواهد الإرادة الكونية ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[١٨٨] و﴿اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾[١٨٩]، ومن شواهد الإرادة الشرعية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١٩٠].

والفرق بين الإرادتين: أن الإرادة الكونية عامة لجميع الموجودات، المحبوب منها والمبغوض، وأن متعلقها لا بد أن يكون، فما شاء الله كان ولا بد.

وأما الإرادة الشرعية؛ فهي مختصة بِمَحَابِّه -سبحانه وتعالى-، ثم متعلقها قد يكون وقد لا يكون.

وتجتمع الإرادتان الكونية والشرعية في إيمان المؤمن، فإيمان أبي بكر واقع بالإرادتين، وتنفرد الإرادة الكونية بكفر الكافر، فهو حاصل وموجود بمشيئته وبتقديره -سبحانه وتعالى-، وليس مراد شرعا، وتنفرد الإرادة الشرعية بإيمان الكافر الذي لم يحصل، ما حصل إيمان، فهو مطلوب شرعا ولكنه لم تتعلق به المشيئة، فلذلك لم يحصل.

---

(١٨٧) الليل: ٥ - ١٠.

(١٨٨) البروج: ١٦.

(١٨٩) الحج: ١٦.

(١٩٠) البقرة: ١٨٥.

(تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد)؛ يعني خلافا للقدرية القائلين بأن أفعال العباد خارجة عن مشيئته وإرادته -سبحانه وتعالى.

(تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى).

(تعالى الله أن يكون لأحد عنه غنى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾[١٩١]؛ فلا غنى لأحد عنه -سبحانه-، فالعباد فقراء إليه في وجودهم، وفي بقائهم، وفي كل شؤونهم وفي أفعالهم، فالعبد لا يقدر إلا على ما أقدره الله عليه، ولا يفعل إلا ما أعانه الله عليه، وهكذا.

(أو أن يكون خالقًا لشيء)، وتعالى أن يكون لأحد عنه غنى، وتعالى أن يكون أحد خالقًا لكل شيء. هذا كله رد على القدرية؛ لأن القدرية النفاة يقولون: إن العباد خالقون لأفعالهم، فهو يقول: (تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، أو يكون أحد خالقًا لشيء من الأشياء)، كل هذه الجمل فيها رد على القدرية؛ لأن القدرية مذهبهم وقولهم يتضمن خلاف هذه المعاني؛ يقولون: إن الله -تعالى- يكون في ملكه ما لا يريد، وهي الكفر والمعاصي مثلاً، بل والطاعات على التحقيق إنها ليست واقعة بمشيئته -سبحانه وتعالى-، وأن العباد مستغنون عن الله في أفعالهم، وأنهم خالقون لأفعالهم، فهذه الجمل الثلاث كلها تتضمن الرد على ما يتضمنه مذهب القدرية النفاة.

(ألا هو رب العباد ورب أعمالهم).

ألا إنه هو -سبحانه وتعالى- رب العباد خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم، وهو رب أفعالهم؛ أي إنه خالق أفعالهم بمشيئته وقدرته.

(والمقدر لحركاتهم وآجالهم).

نعم، هو -سبحانه وتعالى- المقدِّر الذي سبق علمه قدره، (لأفعالهم) طاعاتهم ومعاصيهم. (وآجالهم): هو المقدر لآجالهم، فالله قَدَّرَ الأقدار وضرب الآجال، والآيات الدالة على تقديره تعالى للآجال كثيرة، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾[١٩٢]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ

---

(١٩١) فاطر: ١٥.

(١٩٢) آل عمران: ١٤٥.

يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١٩٣]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[١٩٤]، واقرؤوا الآيات في هذا كثيرًا، تقديره -تعالى- للآجال ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[١٩٥]. فلهذه الدنيا أجل محتوم معلوم، وإذا انتهى عمر الدنيا؛ قامت القيامة، ولكل نفس أجل، ولكل أمة أجل.

وبهذه المناسبة يذكر أهل السنة يقولون يعني من فروع هذه المسألة: أن المقتول ميت بأجله؛ خلافا للمعتزلة؛ فيقولون: إن المقتول قد قُطِعَ عليه أجله، يعني تسلط عليه هذا القاتل وقطع أجله، يمكن له أن عمره مقدر بمئة سنة، ولكن اعتدى عليه القاتل فقطع عليه، فيقولون: إنه مقطوع عليه أجله، وأهل السنة يقولون: لا، بل هو ميت بأجله، فالله قد سبق علمه وكتابه بأن عمره كذا وأنه يموت بالقتل.

يقول السائل: سمعت في بعض الإذاعات رجلا يقول: "يا خالق الزمان والمكان يا منزه عن الزمان والمكان" فما صحة هذا النداء؟

آمنت بالله ربًّا.. هذا من التنطع في الكلام، لا شك أنه خالق كل شيء، وكلمة: منزه عن الزمان والمكان هذا من الألفاظ المجملة التي منهج أهل السنة والجماعة هو التفصيل والاستفصال، فقولهم: منزه عن المكان إن أريد به أنه منزه عن أن يُحيط به شيءٌ من المخلوقات ومن الأمكنة؛ فهذا نعم، هو منزه عن أن يحيط به شيء من المخلوقات، وإن أريد أنه ليس فوق السماوات عالٍ على خلقه، فهذا باطل، فهذه من العبارات المحدثة المبتدعة المجملة التي تشتمل على حق وباطل، وكذلك الزمان، إن أريد به أنه -تعالى- يحيط به الزمان المقدر هذا الذي هو عبارة عن ليل ونهار، ويحده مثلاً عمر الدنيا فهذا نفي صحيح، لكن منزه عن الزمان ما معنى أنه منزه عن الزمان، يعني من أطلق هذا نقول له: ما تريد؟ فهذا من التنطع في الكلام ومن الكلام المجمل المبتدع.

يقول: هل مذهب الرافضة يحرفون في الاستواء؟

الرافضة كانوا مشبهة قديما، قدماؤهم مشبهة، ومتأخروهم دخل عليهم مذهب المعتزلة مثل ابن المطهر الذي رد عليه شيخ الإسلام -رحمه الله- في كتابه "المنهاج".

---

(١٩٣) الأعراف: ٣٤.

(١٩٤) الأنعام: ٢.

(١٩٥) الرعد: ٣٨.

يقول: ما ذكره البيهقي[١٩٦] عن الإمام أحمد بسند صحيح في تفسير قوله -تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[١٩٧] قال الإمام أحمد: أي جاء ثوابه، أليس هذا من التأويل؟

هذا من التأويل، لكنه من الكلام المتشابه، ونعلم قطعا أن الإمام أحمد لا يَنفي مجيء الرب، ليس هو من نفاة أفعال العباد، فهذا الكلام يُنظر فيه، وله تخريج. لكن نعلم أن الإمام أحمد ما قال هذا على طريقة المعطلة الذين يقولون: إن الله لا تقوم به الأفعال، فيكون من الكلام المتشابه الذي يجب رده للمحكم، لكن أصحاب الأهواء يتصيدون، حتى القرآن يأخذون منه الشبهات، يتبعون المتشابه، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾[١٩٨].

يقول: من يقول: "أخشى وأخاف من قدر الله" هل هذا الكلام صحيح؟ أم فيه مخالفة؟

إن كان يريد أخاف مما هو بتقدير الله يخاف من السّبُع، وهو بقدر الله، ويخاف من اللص وهو بقدر الله، فهذا خوف طبيعي؛ إن الإنسان يخاف من هذه الأقدار كلها، يخاف من الجوع وهو بقدر الله، وإن أراد يقول: أخاف من تقدير الله، فهذا من التعلق، يعني من إضافة المعنى لغير من، هو قل أخاف الله، لا تقول: أخاف من تقدير الله، قل أخاف الله، هذا وهكذا نقول: إن مثل هذه التعبيرات من الكلام المتكلَّف، لماذا الحياد عن الألفاظ الشرعية، والألفاظ الواضحة البيِّنة إلى ألفاظ مشكلة وفيها احتمالات.

يقول: انتشر في الآونة الأخيرة عند بعض أهل الاستقامة من يقوم بالقص من لحيته وتهذيبها، وعندما يُناقش أحدهم فإنه يقول: إن من رَوَوْا أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في إعفاء اللحية يأخذون من لحاهم؛ كابن عمر وأبي هريرة، فما نصيحتكم؟

يقول أهل العلم قاعدة: إن العبرة بما روى الراوي لا بما رأى.

---

(١٩٦) الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي، صاحب التصانيف. ولد سنة أربع وثمانين ثلاث مئة في شعبان ومات في عاشر جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وأربع مئة بنيسابور، ونقل في تابوت إلى بيهق مسيرة يومين. من تصانيفه: "السنن الكبرى"، و"الخلافيات". انظر سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٦٣ ترجمة ٨٦)، طبقات الحفاظ (ص٨٧).

(١٩٧) الفجر: ٢٢.

(١٩٨) آل عمران: ٧.

(الْبَاعِثُ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ؛ لإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَجَعَلَهُ آخِرَ الْمُرْسَلِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ).

بعدما ذكر المؤلف وجوب الإيمان بالقدر، وفصَّل في ذلك أتبع ذلك بذكر بعث الله الرسل، وأن الله تعالى بعث الرسل مبشرين ومنذرين؛ لإقامة الحجة على العباد؛ ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[١٩٩]، وختمهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبيه خاتم النبيين، وسيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وذكْر بعث الرسل الذين أرسلهم الله بالدعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وأمر العباد ونهيهم، وبيان الحلال والحرام لهم، وأمر الناس فيه بطاعتهم -أي: بطاعة الرسل-؛ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[٢٠٠]، هذا من كلام نوحٍ -عليه السلام.

ذكْر هذا بعد ذكر القدر يتضمن تقرير أصل وهو: وجوب الإيمان بالشرع والقدر، لا بد من الإيمان بالأمرين جميعا، الإيمان بالقدر حَسَبَ ما تقدَّم، يعني على الوجه المتقدم، الإيمان بالقدر لا بد أن يقوم على الأصول الأربعة التي ذكرناها ويُعَبَّر عنها بمراتب الإيمان بالقدر، وتقدم ذكر المذاهب في أفعال العباد؛ لأنها قضية متفرعة عن مسألة القدر، مع الإيمان بالقدر لا بد من الإيمان بالشرع، وهو دينه الذي شرعه لعباده، أمره ونهيه وما جاءت به الرسل من الاعتقادات الصحيحة؛ لأنه يجب الإيمان بها.

وهذا الأصل اضطرب فيه الناس، فالجبرية -كما تقدم- غلوا في إثبات القدر وأعرضوا عن الشرع، الأوامر والنواهي. فعندهم أن الإنسان ما دام مجبورا؛ فما معنى إنه يكلف ويؤمر وينهى؟! في كل أفعاله هو مطيع، مطيع لله؛ لأنه مستجيب للقدر.

وهؤلاء أعني الجبرية الذين يغلون في إثبات القدر، وينفون أفعال العباد، ويرون أن الإنسان مجبور وأنه لا فعل له ولا اختيار، ويعرضون عن الشرع يسميهم شيخ الإسلام[٢٠١]: المُشْرِكِيَّة؛ نسبة إلى المشركين؛ لأن المشركين

---

(١٩٩) النساء: ١٦٥.

(٢٠٠) نوح: ٣.

(٢٠١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيميّة الحرّاني، ثم الدمشقي، الحنبلي، الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد. برع في العلوم الإسلامية والآلية، وقمع الله به أهل

احتجوا على الرسل بالقدر، وعارضوا دعوة الرسل بالقدر، فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[٢٠٢]، وهو كلام حق في ذاته؛ لأن الله قال في مواضعَ أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾[٢٠٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[٢٠٤].

إذن: فهي كلمة حق أريد بها باطل، فكانوا بذلك مبطلين وظالمين؛ لأنهم احتجوا لشركهم بالقدر، والقدر لا يُحتج به على المعائب والذنوب، ما يمكن، وإلا؛ اضطربت أمور الدنيا والآخرة، على هذا المبدأ على القاتل يقول: أنا قتلت بمشيئة الله، لو شاء الله ما قتلت، والآخر يقول: لو شاء الله ما سرقت، وهلم وهلم.. فلا تستقيم عليه، فالرسل جاؤوا بالشرائع لتستقيم الحياة الدنيا وليسعد من آمن بهم واتبعهم في الآخرة. فلا تستقيم الحياة أبدا على مذهب الجبرية.

شيخ الإسلام يسميهم المشركين نسبة للمشركين؛ لأنهم يعارضون الشرع بالقدر، ويشبههم كل واحد يَعصي ويقول: هذا شيء مكتوب عليّ، هكذا يجري على ألسنة بعض السفهاء إذا أُنكر عليه المنكر؛ قال: هذا مكتوب عليَّ أيش أفعل؟ لا، هذا احتجاج باطل، طيب لو يأتي ويعتدي عليه واحدٌ، ويضربه أو يُعذبه يقول: هذا مكتوب، يقبل منه؟ لا يقبل، فالذين يحتجون بالقدر يحتجون به في دفع اللوم عن أنفسهم، لكنهم لا يقبلونه من غيرهم، لا يقبلون هذه الحجة، ويُقابل المشركية، لاحظوا أنهم لم يؤمنوا بالشرع والقدر على استقامة، لا، فأثبتوا القدر وغلوا فيه، ومنهم المكذب بالشرع؛ كالمشركين أعداء الرسل، ومنهم من يضعف إيمانه وعنايته بالشرع، فهم بهذا مشركين، يشبهون المشركين.

يقابلهم القدرية -أي نفاة القدر- الذين تقدم ذكرهم، فالغلاة ينفون القدر بكل مراتبه، والمتوسطون ينفون عموم المشيئة وعموم الخلق، هؤلاء يؤمنون بالشرع وربما نقول: يغلون في إثبات الشرع، حتى يقولون بحتمية

---

الضلال، ونصر به أهل السنة. ولد سنة إحدى وستين وست مئة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مئة. وله من المؤلفات: الواسطية، ومنهاج السنة. انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١ ترجمة ٥٣١)، والوافي بالوفيات (٧/ ١٠ ترجمة ٦١٩).

(٢٠٢) الأنعام: ١٤٨.

(٢٠٣) الأنعام: ١٠٧.

(٢٠٤) الأنعام: ١٣٧.

الوعيد، إنفاذ الوعيد ويقولون بتخليد أهل الكبائر في النار، تعلمون أن هذا هو سبيل المعتزلة، فالمعتزلة ينفون القدر، ويغلون في الأمر والنهي.

ويقول شيخ الإسلام: "إن مذهب القدرية المعتزلة خير من مذهب الجبرية". كل منهم عنده حق وباطل، لكن مذهب القدرية النفاة يمكن لا تستقيم عليه أمور الناس أمور الحياة؛ لأنهم يُشددون في وجوب الالتزام بالأوامر والنواهي، حتى إن العاصي يخرجونه عن الإيمان، هو ليس بمؤمن، الزاني والسارق والشارب، وهؤلاء -أعني القدرية- يسميهم السلف مجوس هذه الأمة؛ لأن مذهبهم يتضمن أن العباد خالقون لأفعالهم.

إذن: جعلوا مع الله خالقين، أشبهوا المجوس القائلين بالأصلين: النور والظلمة، يقولون: للعالم خالقان، فهؤلاء جعلوا مع الله خالقين، أفعال العباد مخلوقة لهم، وليست مخلوقة لله.

انظر، ماذا أخرجوا عن ملك الله، وعن خلق الله، وعن مشيئة الله؟ ما حجم ما أخرجوه؟ قليل؟ كثير، بل يقول شيخ الإسلام وابن القيم[٢٠٥] يذكر يعني ما يقتصر هذا على أفعال المكلفين، بل وأفعال الحيوان، وأفعال الملائكة كلها، هذه خارجة عن قدرة الله ومشيئة الله وخلق الله، فالجبرية -كما تقدم- مشركية، والقدرية مجوسية، مجوس هذه الأمة، فهما على طائفتين: هؤلاء نفوا القدر وغلوا في الشرع، وهؤلاء غلوا في القدر وأعرضوا عن الشرع، والمعتزلة في نفيهم للقدر وتعظيمهم للشرع خير من الجبرية.

ذكر شيخ الإسلام هذا في مواضع كثيرة؛ ومنها: الفصل الأخير في "التدمرية" فيه يقول: "فرق الضلال في الشرع والقدر"، الذين ضلوا في هذا الأصل، قال: إنهم ثلاثة، فرق الضلال في هذا الأصل أعني الشرع والقدر يقول: مشركية عرفناهم، مجوسية عرفناهم، وهناك فرقة ما هي ظاهرة كثيرًا إبليسية، يقول: "هم الذين يقرون بالشرع والقدر"، يقولون كلها صارت حقا من عند الله، يعني كلها ثابتة عن الله.

لكن هذا تناقض؛ يطعنون في حكمة الله، هؤلاء الإبليسية، نسبة إلى إبليس؛ لأن إبليس عارض الشرع بالقدر مع إقراره بالجميع، واعتبر ذلك تناقضًا، فسموا إبليسية، ارجعوا إليها؛ تجدوها هكذا شيخ الإسلام يقول: فرق

---

(٢٠٥) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز، شمس الدين أبو عبد الله، الزرعي، ثم الدمشقي. الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف. ابن قيم الجوزية. تفقه في المذهب الحنبلي، وبرع وأفتى، ولازم شيخ الإسلام ابن تيميَّة. وكان ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة، ولهج بالذكر. له تواليف حسان؛ منها: "زاد المعاد"، و"بدائع الفوائد". ولد سنة إحدى وتسعين وست مئة، وتوفي سنة إحدة وخمسين وسبع مئة. انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣)، والذيل على طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٠ ترجمة ٦٠٠).

الضلال، أما أهل الهدى والفلاح فهم يؤمنون بالشرع والقدر جميعاً على الوجه المشروع، يقول: فيؤمنون بالقدر ويؤمنون بالشرع ويوجبون المأمورات ويحرمون المنهيات، يحلون الحلال، ويحرمون الحرام، ويؤمنون بحكمة الله، فالصراط المستقيم يقوم على الإيمان بالقدر والشرع والإيمان بحكمة الله، فلا يعارضون بين شرع الله وقدره، فالمقصود أن المؤلف قد أحسن حيث أتبع تقريره لأصل الإيمان بالقدر بذكر بعث الرسل، لا بد من الإيمان بهذا وهذا.

يقول: (وختمهم): ختم الرسل الغاية من إرسال الرسل هو دعوة الخلق، وتبشير يعني الغاية من إرسال الرسل هو الإعذار إلى الخلق -كما تقدم- شارة مستجيبين، وإنذار المعرضين والمكذبين، بل النذارة عامة، النذارة عامة أول المنتفعون بها هم الذين استجابوا لدعوة الرسل، قال الله في الكفار: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[٢٠٦].

(ختم الرسل) أول الرسل: نوح -عليه السلام- هو أول الرسل، لَمَّا حدث الشرك في العالم في قومه، أرسل الله نوحًا فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وما آمن معه إلا قليل، وختم النبوة بمحمد -صلى الله عليه وسلم-؛ كما قال -تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٢٠٧]، وقال -عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»، وذكر منها: «وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»[٢٠٨]. فمن خصائصه: عموم الرسالة، ومن خصائصه: ختمه للنبوة.

ولهذا لا يحقق المكلفُ شهادةَ أن محمدا رسول الله إلا بأن يؤمن بأنه رسول الله إلى الناس عامة كافة، ويؤمن بأنه خاتم النبيين؛ فلا نبي بعده.

فمن أنكر واحدة من هاتين الخصيصتين للرسول؛ فإنه لم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله، فيكون من قال رسالة محمد خاصة بالعرب أو خاصة بأمم ليست عامة للناس كلهم فهو كافر فلا تصح شهادته، ومن قال: إنه

---

(٢٠٦) يس: ١٠، ١١.

(٢٠٧) الأحزاب: ٤٠.

(٢٠٨) أخرجه مسلم:كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة بلفظ: "فضلت على الأنبياء بست". وفي الباب عن جابر، وعوف بن مالك، وأنس وغيرهم.

ليس خاتما للنبيين بل يمكن ظهور نبي بعده فكذلك فهو كافر، لا بد لصحة إسلام المكلف أن يشهد أن محمدا رسول الله، إلى الناس كافة، وأنه لا نبي بعده.

والرسول -صلى الله عليه وسلم- له فضائل، وله خصائص، وقد أثنى الله عليه في كتابه ثناءً مجملاً ومفصلاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِّ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٢٠٩]، هذه مهماته التي تتضمنها رسالته؛ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِّ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِّ فَضْلاً كَبِيرًا﴾[٢١٠] إلى آخر الآية.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢١١]، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢١٢]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِّ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِّ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِّ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢١٣].

وهاتان القضيتان عموم الرسالة، هذه من ضروريات الدين، وهذا يقال فيه: إنه معلوم من دين الإسلام بالضرورة، أن رسالة الرسول عامة، وأنه خاتم النبيين، فمن جحدهما أو واحدة منهما فهو كافر إن كان مسلم فهو مرتد، يرتد بذلك.

وممكن بهذه المناسبة الرسول والنبي التعريف المشهور: إن النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وهذا التعريف غير مستقيم في الحقيقة وإن كان هو المشهور؛ لأن معنى هذا إن النبي عمله قاصر على نفسه، فهو معناه أنه لا يعلم، أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ، فلا دعوة ولا

---

(٢٠٩) الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

(٢١٠) الأحزاب: ٤٧.

(٢١١) التوبة: ١٢٨.

(٢١٢) الأعراف: ١٥٧.

(٢١٣) الأعراف: ١٥٨.

أمر ولا حكم، هذا غير صحيح، بل الأنبياء يدعون إلى الله ويحكمون بين الناس؛ ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[٢١٤]، وكما في قصة داود -عليه السلام- وغيرها؛ ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[٢١٥].

ولكن التعريف الذي ذكره شيخ الإسلام[٢١٦] منضبطٌ وجيدٌ؛ أن الرسول هو "من أرسل إلى قوم كفار مكذبين؛ مثل: نوح، وهود، وصالح، وموسى، وهارون، وغيرهم". أما النبي؛ فهو من أرسل إلى قوم مرسل إليهم، لاحظ أُرْسِلَ حتى النبي مرسل، ويستشهد شيخ الإسلام على هذا بقوله -سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ولا نَبِيٍّ﴾[٢١٧]، فأضاف الإرسال إليهما، فدلت الآية على أن النبي مرسل، وأن المرسلين منهم النبي ومنهم الرسول.

فهناك إرسال عام، الإرسال الشرعي فيه العموم الذي يشمل الأنبياء والرسل، وفيه الإرسال الخاص، فالرسول هو المرسل إلى قوم كفار. والنبي من أرسل إلى قوم مؤمنين يعلمهم ويحكم بينهم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هذا النبي.

وفي الحقيقة يؤيد هذا التقرير لشيخ الإسلام يؤيده آيات؛ فإن الله سمى أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى سماهم رسلاً؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾[٢١٨]. فهل بعد موسى رسول بالمعنى الخاص؟ هل بالمعنى الخاص هل بعده رسول بالمعنى الخاص إلا المسيح ثم محمد -عليهما الصلاة والسلام؟

---

(٢١٤) المائدة: ٤٤.

(٢١٥) الأنبياء: ٧٨.

(٢١٦) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيميّة الحرّاني، ثم الدمشقي، الحنبلي، الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد. برع في العلوم الإسلامية والآلية، وقمع الله به أهل الضلال، ونصر به أهل السنة. ولد سنة إحدى وستين وست مئة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مئة. وله من المؤلفات: الواسطية، ومنهاج السنة. انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١ ترجمة ٥٣١)، والوافي بالوفيات (٧/ ١٠ ترجمة ٦١٩).

(٢١٧) الحج: ٥٢

(٢١٨) البقرة: ٨٧

(ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَجَعَلَهُ آخِرَ الْمُرْسَلِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

يقول: (ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،)؛ يعني ختم به النذارة والنبوة والرسالة، هذا تأكيد، وإلا؛ فختم النبوة كافٍ، ويتضمن ختم النذارة، بل الأدق أن يقال ختم النبوة؛ لأنك إذا قلت: ختم الرسالة؛ يعني يمكن يصير أن هذا خاتم للرسل، ويمكن يكون بعده نبي بالمعنى الآخر المعروف، وإذا قلت: ختم النذارة أيضًا ما هو دقيق. هل النذارة ختمت الآن؟ النذارة مختومة؟ لم تختم، النذارة باقية، الجن الذين استمعوا للرسول راحوا منذرين لقومهم، وهكذا الدعاة إلى الله ينذرون، يدعون، ويعلمون وينذرون، لكن التعبير الدقيق ختْم النبوة، وخاتم النبيين، وختم به النبيون، فختم النذارة، وكذا الرسالة ما هو بدقيق لكن نوع من التأكيد، يعني النذارة التي تكون بإرسال مباشر.

(وأنزل عليه الكتاب الحكيم)

(أنزل عليه الكتاب الحكيم) أنزل عليه القرآن، والقرآن له أسماء: الكتاب، والفرقان، والقرآن، وصفات كثيرة موصوف بالحكمة، والعزة، والذكر وكل اسم له دلالة.

شيخ الإسلام يمثل بأسماء القرآن للأسماء المتكافئة، التي تتحد من وجه وتختلف من وجه، فالقرآن له أسماء، كلها تدل المسمى هو القرآن الكتاب المنزل على محمد، كلها تدل على مسمى واحد، ولكن كل اسم له دلالة، ويدل على معانٍ وصفات يعني من صفات القرآن، ومثل أسماء الرسول: محمد، وأحمد، والماحي، والعاقب، والمقفي، والبشير، والنذير -صلى الله عليه وسلم.

(وأنزل عليه كتابه الحكيم).

(كتابه الحكيم) كتابه -سبحانه وتعالى- الحكيم، فمن أسماء القرآن الكتاب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾[٢١٩]، كتابه الحكيم، وصف القرآن بأنه حكيم يرجع إلى معنى الحكم الذي يحكم بين في ما اختلفوا فيه، فهو حاكم، وفيه من معاني الحكمة التي هي كل قول صائب وعمل صالح، كتابه الحكيم.

(وشرح به دينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم).

---

(٢١٩) البقرة: ٢

(وشرح به دينه): شرح به دينه يظهر أنه يريد وشرح بالرسول، أنزل على الرسول أنزل الله على الرسول الخاتم خاتم النبيين أنزل عليه كتابه الحكيم (وشرح به دينه) يعني الله شرح وبين دينه بالنبي ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٢٠].

فالرسول بسنته القولية والفعلية والتقريرية شارح لدين الإسلام ومبين لأحكامه تفصيلاً، تفصيل الصلاة والحج والصيام وأحكام سائر الواجبات وأحكام المعاملات.

(وشرح به دينه القويم) الدين القويم المستقيم ضد الدين المعوج وهو كل دين باطل منحرف.

(وهدى به إلى الصراط المستقيم) وإنك لتهدي كما قال -سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢٢١] الرسول يهدي بالدعوة والبيان.

الهداية هدايتان: هداية التوفيق، وتلك مختصة بالرب -تعالى؛ ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٢٢٢] وهداية الدلالة والإرشاد، وهذه تكون من الرسل وأتباعهم؛ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢٢٣].

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ).

هذه مسألة يقول: (والساعة آتية لا ريب فيها) الساعة اسم من أسماء القيامة، الساعة آتية، القيامة آتية، والقيامة لها أسماء كثيرة: القيامة، والساعة، ويوم البعث، ويوم النشور، ويوم الجزاء.. إلى غير ذلك يوم الحساب، الساعة وكثيراً ما يأتي ذكر الساعة، وتذكر بصيغة القيامة، وكذلك القيامة؛ ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٢٢٤]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾[٢٢٥]: تقوم، تقوم الساعة تقوم القيامة.

(٢٢٠) النحل: ٤٤

(٢٢١) الشورى: ٥٢

(٢٢٢) القصص: ٥٦

(٢٢٣) الشورى: ٥٢

(٢٢٤) القيامة: ١

(٢٢٥) الروم: ١٢

وساعة القيامة هذه إحدى الخمس التي استأثر الله بعلمها، قال جبريل للنبي -عليه الصلاة والسلام: «مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[٢٢٦]. قال -سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[٢٢٧] متى؟ المشركون يسألون عن القيامة استهزاءً واستخفافًا، وإلا؛ فهم لا يؤمنون بها حتى يسألوا عن ميعادها، لكنهم كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢٢٨]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾[٢٢٩]، يعني موعد قيام القيامة وانقضاء أمر الدنيا له موعد عند الله وأجل معلوم عند الله، لا يعلم به ملك مقرب ولا نبي مرسل، يعني غيب أي غيب، حتى قال -سبحانه وتعالى- لموسى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[٢٣٠]، إن الساعة آتية؛ يعني لا محالة آتية.

قال -تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. قال المفسرون: معنى ذلك: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ عن نفسي؛ أي من كمال إخفائها وتغييبها واستئثار الله بعلمها، قال الله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ هي غيب.

إذن نعلم أن كل من ادعى توقيت عمر هذه الدنيا فهو مبطل كاذب مفتر على الله الكريم.

(لا ريب فيها) لا ريب، يقين، يجب الإيمان من أصول الإيمان الإيمان باليوم الآخر، الإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالساعة الإيمان بالقيامة، الإيمان بالبعث، عبرْ عنه بما شئت.

(وأن الله يبعث من يموت) لو قال: وأن الله يبعث من في القبور؛ لكان حسنا؛ لأن الله يبعث من يموت، يبعث الأموات، يبعثهم ويعيدهم ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[٢٣١]، يعيد الله خلقهم، ويبعثهم يعيد خلقهم بعد أن كانوا رفاتًا وترابًا وعظامًا خلاف ما يزعمه الكفار الذين يستبعدون البعث ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ *

---

(٢٢٦) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم (٥٠، ٤٧٧٧)، مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان (٩) من حديث أبي هريرة، وفي الباب عن ابن عمر -رضي الله عنهما.

(٢٢٧) النازعات: ٤٢

(٢٢٨) يونس: ٤٨

(٢٢٩) الأعراف: ١٨٧

(٢٣٠) طه: ١٤، ١٥

(٢٣١) الأنبياء: ١٠٤

أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾(٢٣٢)، ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٢٣٣)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد رد الله على الكفار في جحدهم للبعث ببيان قدرته تعالى التامة فلا يعجزه شيء، هو خلق السماوات والأرض ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾(٢٣٤) هو الذي يحيي الأرض بعد موتها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢٣٥)، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(٢٣٦).

(وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت، كما بدأهم يعودون).

(كما بدأهم يعودون) كما بدأ خلقهم من تراب ومن نطفة ومن كذا يعيدهم -سبحانه وتعالى- وينشئهم نشأة أخرى، ينشئهم نشأة أخرى تناسب حياة البقاء.

(وَأَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ، وَصَفَحَ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ عَنْ كَبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُمْ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكَبَائِرِ صَائِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٢٣٧). وَمَنْ عَاقَبَهُ اللهُ بِنَارِهِ؛ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ، فَأَدْخَلَهُ بِهِ جَنَّتَهُ، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(٢٣٨). وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ).

(٢٣٢) ق: ٣-٤.

(٢٣٣) الرعد: ٥

(٢٣٤) غافر: ٥٧

(٢٣٥) فصلت: ٣٩

(٢٣٦) التغابن: ٧

(٢٣٧) النساء: ٤٨

(٢٣٨) الزلزلة: ٧

في هذه الجملة يذكر المؤلف فضله -سبحانه وتعالى- على عباده المؤمنين، وأنه يضاعف لهم الحسنات ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٢٣٩]، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾[٢٤٠]، فأقل تضعيف الحسنة بعشر أمثالها، هذا أقل شيء إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

جاء في الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ؛ فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»[٢٤١]. ما حد هذا التضعيف؟ سبعمئة؟ ثمانمئة؟ فوق الخيال، عدْل تمرة ثم تكون كالجبل، أضعافَ أضعافٍ أضعافٍ مضاعفة.

فمن فضله -تعالى- أنه يضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، يعني يقبلها ويضاعف أجرها. أما السيئات؛ فإنها بمثلها؛ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[٢٤٢].

ثم من فضله -تعالى- أنه يغفر لكل من تاب إليه، فيغفر للمؤمنين كبائر الذنوب بالتوبة، ولكن في الحقيقة أن مغفرة الذنوب لها مكفرات الذنوب عدة أعظمها وأعمها وأكملها التوبة، فإنها لا تضيق بأي ذنب، فالله يتوب على الكفار والمشركين، المثلثة يقول الله فيهم: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾[٢٤٣]، ﴿الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[٢٤٤].

فمغفرة الذنوب بالتوبة ليست من خصائص المؤمنين، بل التوبة سبب لمغفرة جميع الذنوب، فكل من تاب؛ تاب الله عليه، فالكافر إذا تاب؛ تاب الله عليه. ولكن كأنه يشير يعني عبارة تقتضي أن الكبائر لا تُغفر إلا بالتوبة، وهذا فيه تأمّل؛ فإنه ممكن أن تُغفر وتكفر بالمصائب، يمكن أن تغفر بالاستغفار والإلحاح على الله بطلب المغفرة، يمكن أن تغفر بالحسنات العظيمة، حسنات عظيمة وهكذا.

---

(٢٣٩) الأنعام: ١٦٠

(٢٤٠) البقرة: ٢٦١

(٢٤١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب (١٤١٠)، مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من كسب طيب وتربيتها (١٠١٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، بنحوه.

(٢٤٢) الأنعام: ١٦٠

(٢٤٣) المائدة: ٧٤

(٢٤٤) البروج: ١٠

أما الصغائر؛ فيقول المؤلف: (إنها تغفر باجتناب الكبائر)، وشاهد هذا قوله -تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾(٢٤٥)، وتغفر أيضا الصغائر بفعل الأعمال الصالحة كما في الحديث الصحيح: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»(٢٤٦)، فتكفر الصغائر بالأعمال الصالحة وباجتناب الكبائر، ثم من مات على بعض الذنوب من غير توبة، مات على شيء من الكبائر؛ فهو في مشيئة الله، إن شاء الله؛ غفر له، ولم يعذبه، وهو الحكيم العليم الغفور الرحيم، وإن شاء؛ عذبه بذنبه، ثم من عاقبه بذنبه؛ فلا بد أن يخرج من النار، هذا في الموحدين؛ خلافًا للخوارج والمعتزلة القائلين.

قال الخوارج والمعتزلة: حكم أهل الكبائر أو من مات من أهل الكبائر من غير توبة فحكمهم: أنهم مخلدون في النار، فيقول المعتزلة بإنفاذ الوعيد، حتمية الوعيد، يعني ما فيه مغفرة، ما ترجى لهم مغفرة، ثم إذا عذبوا في النار فلا يرجى لهم خروج، فخالفوا نصوص الكتاب والسنة من وجهين: من جهة قولهم بإنفاذ الوعيد وأن الله لا يغفر لأهل الكبائر أو لأحد من أهل الكبائر وأيضا أن من عذبه فإنه لا يخرج من النار، وكلا القولين باطل، فالموحد إذا مات على شيء من الكبائر المؤمن بالله إذا مات على شيء من الكبائر؛ فإنه تحت مشيئته؛ لقوله -تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٢٤٧)، في آيتين من سورة النساء: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وهاتان الآيتان في حق غير التائب، هذه في حق من لم يتب.

أما من تاب؛ فإن الله يغفر له كل ذنوبه، على حد قوله -تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾(٢٤٨)، وبهذا يحصل الجمع بين الآيتين، فآية الزمر في التائبين، وآية النساء في غير التائبين.

وإخراجه -تعالى- لمن يخرجه من النار من أهل التوحيد يكون بشفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فإنه يشفع لأمته كما جاء في الحديث يشفع لأمته أربع مرات، وفي كل مرة يقول: «فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ

(٢٤٥) النساء: ٣١

(٢٤٦) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن (٢٣٣) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(٢٤٧) النساء: ٤٨

(٢٤٨) الزمر: ٥٣

النَّارِ»[٢٤٩]، ويشفع الملائكة، والأنبياء والمؤمنون. لكنْ نبينا -عليه الصلاة والسلام- لهم النصيب الأوفر في لأهل التوحيد.

(٢٤٩) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: وعلم آدم الأسماء كلها (٤٤٧٦،٦٥٦٥،٧٤١٠)، مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣)، واللفظ له من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه.

يقول: ذكرتم -حفظكم الله- قول ابن تيمية -رحمه الله- في الفرق بين النبي والرسول. ألا ترى أن ابن تيمية -رحمه الله- قد ذكر الفرق بين النبي والرسول، وقال: "النبي من أوحي إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه، بعكس الرسول"، واستشهد بأن أنبياء بني إسرائيل ذكرهم الله بأنه من باب الوصف الغالب، فما توجيهكم؟

أنت تدعي هذا، شيخ الإسلام يقول أيش؟

يقول: قال: "النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه".

لا.. ما قال شيخ الإسلام هذا، وثقْ كلامك.. هذا غير تقريره في كتاب "النبوات"؛ فارجع إليه.

يقول: ما قولكم في مسألة إخراج الله لذرية آدم من ظهره وإشهادهم بربوبية الله؟ وهل قامت الحجة عليهم بهذا الإشهاد؟

لا، ما قامت الحجة عليهم إلا بإرسال الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[٢٥٠].

يقول: ما حكم إهداء الهدايا والورود والزهور للمرضى؟

هذا من التشبه بالكفار، المرضى ما لهم حاجة في الورود، يبغون العافية، إذا أتيت لهم الورود حَزِنَ؛ لأنه يريد أن يتمتع مثلك، أنت مبسوط من الورود تشمها وتنظر إليها، وأنت مبسوط؛ لأنك طيب ومُعَافَى. أما هذا؛ فمسكين. فهذا من التشبه بالكفار، ما يجوز تقديمها ولا عرضها من أجل ذلك.

يقول: ما الفرق بين الإرسال العام والإرسال الخاص؟

الإرسال العام كما قلنا، الإرسال العام يشمل الرسول والنبي، كلهم أرسلوا كلهم مكلف، مكلف بالدعوة والبيان.

يقول: هل السَّتَّار والستير من أسماء الله؟

والله يا أخي ما عندي تحقيق في هذا، ستار يذكر أهل العلم أنه ما ورد بهذا اللفظ، الذي ورد في حديث "الستير"، والله أعلم.

---

(٢٥٠) الإسراء: ١٥

يقول: وقول كثير من الناس: يا ساتر هل هذا صحيح؟

حق، هو الله الذي يستر؛ لأن الأمر في هذا سهل، نعم الله هو الذي يستر ويحفظ عبده، لو استبدل بـ"يا ساتر" يا حافظ كان؛ أنسب للمقام؛ لأنهم يقولون: يا ساتر في مقام الخطأ الذي يخافونه، يقول: يا حافظ أنسب.

يقول: في قول المؤلف: (وأن الله يبعث من يموت) ألا يقال أنه اتخذ لفظ من يموت ليشمل الإنسان والجن والحيوانات؟ .. الآية ﴿يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[٢٥١] سبحان الله، ولا مشاحة، فالأمر سهل.

يقول: قول القائل: شاءت الظروف هل في هذا محظور؟

خطأ.. خطأ.. هذا ما يصح، الظروف ما لها مشيئة.

يقول: ظهر من بعض طلاب العلم من يقول بأن الأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله: "الاستواء معلوم والكيف مجهول" أثر ضعيف فبماذا يرجح؟

فليكن ضعيفا، فليكن ضعيفا، ليس المعول على قول الإمام مالك، أهل العلم يذكرونه من باب الاستشهاد، فليكن، مع أن هذا من شنشنة الذين يتحسسون أن يتدخلوا في الآثار المشهورة التي تلقتها الأمة بالقبول.[٢٥٢]

فأثر مالك الذي تلقته الأمة بالقبول، المالكية وغير المالكية كلهم ينقلونه، فلو لم يكن التعويل إلا على شهرته واستفاضته، ونحن نقول أيضا: لو فرض أن الإمام مالكا ما قال هذا الكلام، فنحن نقول: نعم، هذه النصوص معانيها معلومة، وحقائقها غير معلومة لنا والإيمان بها واجب، نقول للسائل: من هو الذي تكلم بهذا الكلام التضعيف؟ في كتاب؟ صمت صاحبك.

يبدو أنه ينقل يا شيخ عن بعض يقول سمعت بعض طلاب العلم.

اتركنا ما علينا منه، هذا ما يُسأل عنه.

يقول: ما حكم بيع منتجات من سب الرسول -صلى الله عليه وسلم-؟ وما الواجب علينا؟

---

(٢٥١) الحج: ٧

(٢٥٢) صحيح: أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥١)، وقال الألباني في مختصر العلو ص ١٣٢: صحيح.

على كل حال لو حصل مقاطعتهم وعقوبتهم يعني مقاطعة مؤثرة عليهم طيب هذا.

(وَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى أَرْضِهِ بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ، وَخَلَقَ النَّارَ).

في هذه الجملة في الحقيقة ثلاث مسائل:

المسألة الأولى يقول: (وأن الله خلق الجنة)؛ يعني ومن الإيمان: الإيمان بأن الله خلق الجنة، يجب الإيمان بأن الله خلق الجنة، معنى ذلك أن الجنة موجودة، مخلوقة، معدة، خلق الجنة وأعدها للمتقين، وجعلها دار خلود دار بقاء لأوليائه المتقين، دار المتقين هي دار المتقين، والأدلة على وجود الجنة كثيرة منها قوله -تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢٥٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾[٢٥٤]، ومنها قوله -تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾[٢٥٥]، وكذا قوله -تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢٥٦].

الجنة موجودة، وكذلك القول في النار إنها موجودة، فأهل السنة والجماعة يقولون: إن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، والأدلة كذلك على وجود النار كثيرة؛ منها في القرآن، قال -تعالى- في قوم نوح المغرَقين: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾[٢٥٧]، وقال في فرعون وقومه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[٢٥٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾[٢٥٩]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢٦٠].

---

(٢٥٣) آل عمران: ١٣٣

(٢٥٤) الحديد: ٢١

(٢٥٥) النجم: ١٣ - ١٥

(٢٥٦) النحل: ٣٢

(٢٥٧) نوح: ٢٥

(٢٥٨) غافر: ٤٦

(٢٥٩) النحل: ٢٨

(٢٦٠) الأنعام: ٩٣

ومن السنة أدلة كثيرة؛ منها ما جاء في أحاديث صلاة الكسوف، وأنه -صلى الله عليه وسلم- قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ -فِي مَقَامِي هَذَا- الْجَنَّةُ وَالنَّارُ»(٢٦١)، وشاهده الصحابة أنه في مرتين تكعكع وتأخر، وفي مرة تقدم، وأراد أن يأخذ قِطْفًا من الجنة(٢٦٢)، والله على كل شيء قدير.

ومنها ما ورد في عذاب القبر ونعيمه، وأن الميت في قبره يفتح له بابٌ إلى الجنة، المؤمن يفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها، والكافر يفتح له باب إلى النار(٢٦٣)، وأنكر ذلك المعتزلة، المعتزلة أنكروا وجود الجنة والنار، وقالوا: إن الله يخلقهما يوم القيامة، وقالوا بعقولهم الفاسدة: إن خلقهما الآن عبث، ومذهبهم هذا باطل مردود بهذه الأدلة وغيرها كثير.

قال -صلى الله عليه وسلم: «وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»(٢٦٤)، وقال: «مَن شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَهُوَ رُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»(٢٦٥).

المسألة الثانية في هذه الجملة مسألة: النظر إلى وجه الله، أعلى نعيم أهل الجنة نظرهم إلى وجهه الكريم. وهذه مسألة الرؤية التي وقع فيها الافتراق بين فرق الأمة، فأهل السنة والجماعة يُؤمنون بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، وقد أجمع أهل السنة على ذلك، وهو أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، يرونه في عرصات القيامة ومواقف القيامة، وساحات القيامة، ويرونه بعد دخولهم الجنة كما يشاء الله، وأدلة الرؤية من الكتاب:

---

(٢٦١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال (٥٤٠،٦٣٦٢، ٧٠٩١، ٧٢٩٤)، مسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- (٢٣٥٩) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه.

((٢٦٢)) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب إذا اتفلتت الدابة في الصلاة (١٢١٢)، واللفظ له، مسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (٩٠١)

(٢٦٣) صحيح: أخرجه أحمد في المسند (١٨٥٣٤ - ١٨٥٣٦)، أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذابه (٤٧٥٣)، واللفظ لهما، النسائي: كتاب الجنائز، باب الوقوف للجنائز (٢٠٠١)، ابن ماجه: كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في الجلوس في المقابر (١٥٤٩) من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه-، قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح.

(٢٦٤) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله -تعالى-: وهو الذي خلق السموات والأرض (٧٣٨٥)، مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاو الليل وقيامة (٧٦٩) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

(٢٦٥) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله -تعالى-: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم (٣٤٣٥)، مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه.

قوله -تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢٦٦).

وقوله -تعالى: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾(٢٦٧).

وقوله في الكفار: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٢٦٨).

إذن: هذا يدل على أن المؤمنين بخلاف ذلك ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(٢٦٩)، وجاء تفسير الزيادة بأنها النظر إلى وجهه الكريم -سبحانه وتعالى.

ومن السنة: الأحاديث الصحيحة المتواترة، فمن ذلك ما جاء في حديث جرير بن عبد الله أنه قيل: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ قال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» و«هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا، قال: (إِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»(٢٧٠)؛ يعني ترونه كما ترون القمر وكما ترون الشمس، فشبه الرؤية بالرؤية، ولم يشبه المرئي بالمرئي، يعني أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة كرؤيتهم للشمس والقمر من حيث الظهور، إنها رؤية ليس فيها معاناة، لا يلحقهم ضيم، «لاَ تُضَامُّونَ» «لاَ تُضَارُّونَ» لا يلحقهم ضيم، ولا ضرر، رؤية من غير إحاطة ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾(٢٧١)، رؤية حقيقية بصرية، لا كما يقول المبتدعة: إنها رؤية علمية.

وأنكر ذلك المعطلة الجهمية والمعتزلة أنكروا أن الله يُرى، وتعلقوا بمثل قوله -تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾(٢٧٢)، وهي حجة عليهم، فالمنفي هو الإدراك الذي هو الإحاطة، ونفي الإدراك يستلزم ثبوت الرؤية من غير إحاطة.

---

(٢٦٦) القيامة: ٢٣

(٢٦٧) المطففين: ٢٣

(٢٦٨) المطففين: ١٥

(٢٦٩) يونس: ٢٦

(٢٧٠) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله -تعالى-: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة (٧٤٣٨)، مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(٢٧١) الأنعام: ١١٣

(٢٧٢) الأنعام: ١١٣

وأما الأشاعرة؛ فقولهم في الرؤية كقولهم في كلام الله، فيه شيء من التذبذب بين الإثبات والنفي، فيقولون: إنه -تعالى- يُرى لا في جهة، يعني لا يُرى من فوق ولا يمين ولا شمال، وهذه رؤية غير معقولة، رؤية غير معقولة، فكان مذهبهم أشبه ما يكون بمذهب النفاة.

المسألة الثالثة في هذه الجملة: مسألة الجنة التي أهبط منها آدم، فالذي عليه الجمهور أنها هي جنة الخلد التي خلقها الله وأعدها لأوليائه ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا ولاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا ولاَ تَضْحَى﴾[٢٧٣] الجنة، ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٢٧٤].

وقال آخرون: إنها ليست الجنة جنة الخلد التي أعدت للمتقين، بل هل جنة في مكان وفي ربوة من الأرض الله أعلم حيث كانت.

وقد احتج كل من الفريقين بحجج واستوفاها أو استوعبها ابن القيم[٢٧٥] في كتابيه "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" الذي خصصه في شأن الجنة وما يتعلق بها من أبوابه يعني هل الجنة التي أهبط منها هي جنة الخلد؟ أو هي شيء آخر أو جنة أخرى، وكذا في كتابه "مفتاح دار السعادة" عرض لهذه المسألة، والذي يرجحه أنها جنة الخلد، وهذا والله أعلم يمكن أن نقول إنه ظاهر القرآن؛ فموسى يحتج يقول: «أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ»[٢٧٦].

والظاهر أن سجود الملائكة لآدم وما كان من إبليس أن ذلك كله كان في السماء، والجنة في السماء، وأيضا قوله -تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ

---

(٢٧٣) طه: ١١٩

(٢٧٤) البقرة: ٣٥

(٢٧٥) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز، شمس الدين أبو عبد الله، الزرعي، ثم الدمشقي. الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف. ابن قيم الجوزية. تفقه في المذهب الحنبلي، وبرع وأفتى، ولازم شيخ الإسلام ابن تيميَّة. وكان ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة، ولهج بالذكر. له تواليف حسان؛ منها: "زاد المعاد"، و"بدائع الفوائد". ولد سنة إحدى وتسعين وست مئة، وتوفي سنة إحدة وخمسين وسبع مئة. انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣ - دار هجر)، والذيل على طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٠ ترجمة ٦٠٠).

(٢٧٦) حسن: أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر (٤٧٠٢) من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، قال الألباني في صحيح أبي داود: حسن.

مُسْتَقَرٌّ﴾[٢٧٧] هذا يدل على أنهم ما كانوا في الأرض، بل أهبطوا إلى الأرض، ومن يقول: إنها جنة غير جنة الخلد يقول: إنها جنة في الأرض، والله أعلم.

(وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَتِهِ).

هذه الجملة متصلة بالتي قبلها، والكلام فيها مرتبط بما قبله في مسألة وجود النار، الجنة والنار موجودتان، وقد خُلقتا للبقاء، فالله خلق الجنة وجعلها دار خلود لأوليائه، وخلق النار وجعلها دار خلود لأعدائه الكافرين.

ومن الأدلة على وجود النار قوله -تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٢٧٨] وما سوى ذلك من الأدلة؛ فالأدلة على وجود الجنة والنار ظاهرة من القرآن ومن السنة، فالكلام فيهما واحد.

وقد اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار موجودتان مخلوقتان لا تفنيان. أما الجنة؛ فقد أجمع أهل السنة على دوامها وبقائها، وأما النار فكذلك، منهم من يَحكي الإجماع، ومنهم من يحكي بعض الخلاف في دوام النار.

وجمهور أهل العلم وجمهور السلف على أن النار دائمة خالدة لا تفنى، والأدلة على دوام الجنة والنار ظاهرة، ففي شأن الدارين والطائفتين يقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[٢٧٩]، يعني قد وصف أهل الجنة وأهل النار بالخلود فيهما أبدا؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢٨٠].

ومن الأدلة على دوام الجنة مثلاً قوله -تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[٢٨١] وقوله -تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾[٢٨٢].

---

(٢٧٧) البقرة: ٣٦

(٢٧٨) البقرة: ٢٤

(٢٧٩) النساء: ٥٧

(٢٨٠) النساء: ١٦٨، ١٦٩

(٢٨١) الرعد: ٣٥

(٢٨٢) ص: ٥٤

وقد عرض ابن القيم في كتابيه أيضا في كتابه "حادي الأرواح" وفي كتابه "شفاء العليل" لمسألة دوام الجنة والنار، ومسألة فناء النار، وذكر فيها يقول: "سألت عنها شيخ الإسلام، وقال: إنها مسألة عظيمة حكى فيها القولين".

ولا يجوز أن ينسب إلى شيخ الإسلام ولا ابن القيم القول بفناء النار؛ لأنه هو لم يصرح بذلك، إنما ذكر فيها القولين، وذكر ابن القيم ما يحتج به لهذا وهذا من الدلالات ومن الشبه.

شبه القائلين بفناء النار، قوله -تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[٢٨٣] قرؤوا أقوال المفسرين فيها تجدوها أقوالا كثيرة ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. قيل: منهم من قال: المراد مدة مكثهم في الدنيا، أو مكثهم في البرزخ، أو في مواقف القيامة.

وأحسن ما قيل في هذا والله أعلم أن قوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن المراد بيان أن خلود أهل النار فيها بمشيئته سبحانه، وهكذا أهل الجنة، فدوام الجنة والنار وبقاؤهما وبقاء أهلهما إنما هو بمشيئته وبإبقائه -تعالى-، فليس بقاء الجنة والنار أو أهل الجنة والنار كبقاء الله، فبقاء الله ذاتي له، وحياته ذاتية له.

أما بقاء الجنة والنار؛ فبإبقائه -تعالى-، وبمشيئته -تعالى-، ومع ذكر شيخ الإسلام وابن القيم للقولين أنا لا أذكر أنهما أضافا يعني القول بفناء النار إلى مُعَيَّنٍ من أهل العلم؛ إنما يذكرون القولين مجملا، يذكرونها على وجه الإجمال.

(وَأَنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا؛ لِعَرْضِ الأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَعُقُوبَتِهَا، وَثَوَابِهَا).

هذه المسألة يقول: (ويجيء -سبحانه وتعالى- يوم القيامة والملك صفا صفا): يجيء للفصل بين عباده، وجزائهم على أعمالهم، وذلك بثواب الطائعين المؤمنين والمتقين، وبعقاب الكافرين، ومن شاء الله من الموحدين، والمهم في هذا تقرير إثبات المجيء وأن الله يجيء، وقد جاء هذا المعنى في ثلاث آيات، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾[٢٨٤]، وقال -تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾[٢٨٥]، وقال -تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٢٨٦].

---

(٢٨٣) هود: ١٠٦-١٠٧.

(٢٨٤) البقرة: ٢١٠.

فأهل السنة والجماعة يُؤمنون بظاهر هذه الآيات، ويقولون: إن الله يجيء كيف شاء، كما يقولون: إنه ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء، ويقولون: إنه استوى على العرش كيف شاء. فالمجيء من أفعاله التي يفعلها بمشيئته، فيثبتون المجيء حقيقة، يأتي هو نفسه -تعالى- لكن لا نعلم كُنْهَ مجيئه، كما لا نعلم كيفية نزوله، أو كيفية استوائه، المجيء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، السؤال عن الكيفية بدعة.

يجيء -تعالى- للفصل بين عباده، فيحاسبهم على أعمال ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، ويسترها عليه ويغفرها له، ومن صور المحاسبة وزن الأعمال، تنصب الموازين ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(٢٨٧).

أما نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة ونفاة الأفعال كالأشاعرة ونحوهم؛ فينفون حقيقة المجيء كما ينفون حقيقة النزول وينفون حقيقة الاستواء، فيتأولون، منهم من يفوض، يقول: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ الله أعلم بمراده، ما ندري! وأهل التأويل منهم يقولون: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾؛ يعني وجاء أمره، لماذا تقولون: وجاء أمره؟ قالوا: لأن المجيء فعل، والله -تعالى- لا تقوم به الأفعال؛ لأن الأفعال حوادث، والله -تعالى- منزه عن حلول الحوادث، وهذه العبارة أو هذه اللفظة من الألفاظ المبتدعة المحدثة المجملة، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله أن الله مُنَزَّهٌ عن حلول الحوادث.

**قال العلماء: "من أطلق هذا اللفظ: إن أراد أنه لا يحل فيه شيء من المخلوقات؛ فهذا نعم، أما إن أراد أنه لا تقوم به الأفعال الاختيارية؛ فهذا باطل".**

(وَتُوضَعُ الْمَوَازِينُ لِوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

وَيُؤْتَوْنَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَه بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصْلَوْنَ سَعِيرًا.

(٢٨٥) الأنعام: ١٥٨.

(٢٨٦) الفجر: ٢٢.

(٢٨٧) المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣.

وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ).

من أصول الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، ويدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما يكون بعد الموت؛ من فتنة القبر وعذاب القبر ونعيمه، ويدخل فيه الإيمان بالبعث والنشور، هذا هو الأمر الأعظم الذي أنكره الكافرون، ثم ما يكون يوم القيامة بما دلت عليه النصوص من وزن الأعمال ، وقد دل على وزن الأعمال آيات وأحاديث لا تحصى تترى، ذكر الوزن قد جاء في الأعراف، وجاء في الأنبياء وفي سورة المؤمنون، وفي سورة القارعة ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[٢٨٨] إلى آخرها.

ونشر صحف الأعمال ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[٢٨٩]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٢٩٠]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٢٩١]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[٢٩٢] الآيات.. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾[٢٩٣].

فالإيمان بهذا كله هو من الإيمان باليوم الآخر، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذا على حقيقته، فالأعمال توزن حقيقة، هناك ميزان حقيقي.

ومن المبتدعة من أنكر حقيقة الميزان ووزن الأعمال، وقال: إن المراد بالميزان: العدل، عدل الرب -سبحانه وتعالى-، وهذا أمر معنوي، فليس هناك ميزان له كفتان توضع فيهما الحسنات والسيئات.

---

(٢٨٨) القارعة: ٦- ٩.

(٢٨٩) التكوير: ١٠

(٢٩٠) الانشقاق: ٧-٨.

(٢٩١) الحاقة: ١٩-٢٠.

(٢٩٢) الحاقة: ٢٥.

(٢٩٣) الانشقاق: ١٠ – ١٢.

وهذا خلاف ظاهر القرآن والسنة؛ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٢٩٤). كذلك صحف الأعمال: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾(٢٩٥)، وآيات كثيرة.. ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٢٩٦).

وكذلك مما يجب الإيمان به -وهو داخل في الإيمان باليوم الآخر: الصراط، وهو جسر منصوب على متن جهنم يمر عليه الناس، والظاهر أن الذين يمرون عليه ظاهر الأدلة أن الذين يمرون عليه هم المتنسبون للإيمان. أما الكفار وعباد الأصنام والأوثان والصلبان؛ فهؤلاء يساقون إلى النار ابتداءً، يحشر الناس فيقال لهم: «لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ»(٢٩٧)، فَمَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ يَتْبَعُ الشَّمْسَ، وَمَنْ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ يَتْبَعُ الطَّوَاغِيتَ وهكذا، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري(٢٩٨) في الصحيحين وغيرهما.

فالذين يعبرون الصراط يعبرون متفاوتين في العبور؛ منهم من يمر سريعا كالبرق، منهم من يمر كالريح، كَأَجَاوِدِ الخيل، والرِّكَاب، ومنهم من يسعى سعيا يركض، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف، وفي الحديث: «فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ»(٢٩٩).

**فهذا الصراط يعبر عليه الناس بحسب حالهم وأعمالهم، تجري بهم أعمالهم، كما كانوا في الدنيا منهم المسارع في الخيرات ومنهم من دون ذلك، ومنهم البطيء في فعل الخير، فكأن هذا والله أعلم ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾(٣٠٠)، من كان**

---

(٢٩٤) الأنبياء: ٤٧.

(٢٩٥) التكوير: ١٠.

(٢٩٦) الإسراء: ١٤.

(٢٩٧) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦، ٤٥٨١، ٦٥٧٤، ٧٤٣٨، ٧٤٤٠)، مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه.

(٢٩٨) هو: الصحابي الجليل عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن غنم بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر أبو موسى الأشعري. مشهور باسمه وكنيته معا وأمه ظبية بنت وهب بن عك أسلمت وماتت بالمدينة وكان هو سكن الرملة وحالف سعيد بن العاص ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة. كان حسن الصوت بالقرآن. شهد فتوح الشام ووفاة أبي عبيدة، واستعمله عمر على إمرة البصرة بعد أن عزل المغيرة، وهو الذي افتتح الأهواز. مات سنة خمسين. انظر: الاستيعاب (ص: ٨٥١ ترجمة ٣١٣٧)، والإصابة (٤/ ٢١١ ترجمة ٤٩٠١).

(٢٩٩) سبق تخريجه.

**مسارعًا في الخيرات في الدنيا؛ أسرع هناك يوم القيامة وتجاوز الخطر، وتجاوز الصراط وزحزح عن النار، ومن كان يسيرُ؛ يسير في هذه الدنيا، والحمد لله، ومن نجا من النار فهو بخير على أي حال، اللهم نجنا من النار.**

(وَالإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَرِدُهُ أُمَّتُهُ لاَ يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ).

هذه المسألة أيضا تابعة لما قبلها، وهي مما يتصل باليوم الآخر: الإيمان بحوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، مما يكون يوم القيامة الحوض لنبينا -عليه الصلاة والسلام-، وهو حوض عظيم وَصَفَه الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وصف ماءه وآنيته ومساحته، بروايات مختلفة؛ منها أن طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من المسك، وبعضهم يقول: وأبرد من الثلج، وآنيته عدد نجوم السماء، ترد عليه أمته، فمن كان مستقيمًا على دين الله وسنة رسول الله؛ ورد وشرب.

وأما من غيَّر وبدَّل فإنه يطمع في الورود، ولكنه يُذاد، ويُحال بينه وبين المراد، وقد صحت بذلك الأحاديث، وأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- عندما يشاهد بعض الأمة ممن يُذاد؛ يقول: «أُمَّتِي أُمَّتِي»، فيقال له: «إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ؛ إِنَّهُمْ مَا زَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»[٣٠١]، فيقول -عليه الصلاة والسلام: «سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»[٣٠٢].

وهؤلاء الذين يُذادون عن الورود قد يكونون مرتدين الردة الكبرى التي يستوجبون بها دخول النار والخلود فيها، وقد يكونون مرتدين عن الاستقامة بترك السنة واعتناق البدعة وبالمعاصي والمخالفات؛ فإن هذه تمنع من

---

(٣٠٠) النبأ: ٢٦

(٣٠١) متفق عليه: البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله -تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا (٣٣٤٩)، مسلم: كتاب الجنة ونعيمها وصفة أهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

((٣٠٢) ) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصبين ....﴾(٧٠٥١)، مسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم (٢٢٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الورود؛ لأنه من ورد على حوضه -عليه الصلاة والسلام-؛ فهو ناجٍ «مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا»[٣٠٣].

ثم إن أهل العلم تكلموا عن الحوض: هل هو قبل الصراط؟ أم بعده؟

على قولين:

منهم من يقول: إنه قبل الصراط، ومنهم من يقول: إنه بعده، ولكن ليس هناك أدلة ظاهرة توجب الجزم بواحد من القولين، والظاهر أن ابن القيم[٣٠٤] يختار أنه قبل الصراط وبعده.

فالمقصود إنه مما يجب الإيمان به من أمور الآخرة ومن أمور يوم القيامة الحوض لنبينا -عليه الصلاة والسلام-، وهو مما تواترت به السنة عن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كما قلنا في شأنه.

**يقول -عليه الصلاة والسلام- للأنصار: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»[٣٠٥]؛ إشارة لهم، سيردون عليه ويشربون -رضوان الله عليهم.**

(وَأَنَّ الإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِخْلاَصٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ بِزِيادَةِ الأَعْمَالِ، وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا، فَيَكُونُ فِيهَا النَّقْصُ وَبِهَا الزِّيَادَةُ، وَلاَ يَكْمُلُ قَوْلُ الإِيمَانِ إِلاَّ بِالْعَمَلِ.

وَلاَ قَوْلَ وَعَمَلَ إِلاَّ بِنِيَّةٍ، وَلاَ قَوْلَ وَعَمَلَ وَنِيَّةَ إِلاَّ بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ).

في هذه الجملة يقرر المؤلف -رحمه الله- عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان في مسمى الإيمان، وهي قضية افترقت فيها الأمة، وهذا هو القول الحق الذي قرره المؤلف هو القول الحق؛ أن الإيمان قول بالقلب، وباللسان،

---

(٣٠٣) صحيح: أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٤٤٤)، قال الترمذي: غريب، ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الحوض (٤٣٠٣)، من حديث ثوبان، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح المرفوع منه.

(٣٠٤) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز، شمس الدين أبو عبد الله، الزرعي، ثم الدمشقي. الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف. ابن قيم الجوزية. تفقه في المذهب الحنبلي، وبرع وأفتى، ولازم شيخ الإسلام ابن تيميَّة. وكان ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة، ولهج بالذكر. له تواليف حسان؛ منها: "زاد المعاد"، و"بدائع الفوائد". ولد سنة إحدى وتسعين وست مئة، وتوفي سنة إحدة وخمسين وسبع مئة. انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣ - دار هجر)، والذيل على طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٠ ترجمة ٦٠٠).

(٣٠٥) متفق عليه: البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان (٤٣٣٠)، مسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر...(١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم به. وفي الباب من حديث أسيد بن حضير، وأنس .

وعمل القلب واللسان، اعتقاد القلب وعمل القلب، وإقرار اللسان وعمل اللسان، وعمل الجوارح، فيدخل في الإيمان جميع مسائل الدين العلمية الاعتقادية والعملية الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان.

ومن الدليل على هذا حديث: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ: وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَعْلاَهَا قَوْلُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»(٣٠٦)، ومعنى هذا: أن الصلاة إيمان، والصيام من الإيمان، والحج من الإيمان، والجهاد من الإيمان، والزكاة من الإيمان، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإيمان، الصبر من الإيمان، والعفو من الإيمان، والحياء من الإيمان بنص الحديث، فالإيمان قول وعمل.

ولا يستقيم الإيمان إلا كما قال المؤلف: (لا يتحقق الإيمان إلا بالإخلاص)، العمل لا يتحقق صلاحُ العمل إلا بالإخلاص.

(وبموافقة السنة)؛ فموافقة السنة معتبرة في جميع مسائل الدين، فالدين هو ما شَرَعَه الله، وما بلغه رسوله -عليه الصلاة والسلام-، وما خالفه؛ فهو باطل، وما أُدْخِلَ فيه؛ فهو باطل أدخل فيه مما ليس منه على حد قوله -عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ»(٣٠٧)، «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ»(٣٠٨).

يقول المؤلف: (إن الإيمان يزيد بالطاعة)؛ لأن نفس الطاعة من الإيمان، فما يفعله العبد من الطاعات فرضها ونفلها هي من الإيمان فيزداد الكَمّ، يزداد الإيمان قدر الإيمان يزداد، ويزداد أيضا الإيمان بالعلم، التصديق يقوى بالطاعة، فإيمان القلب يظهر أثره، له أثر على الجوارح وعمل الجوارح، وعمل الجوارح لها أثر على إيمان القلب، فكل منهما يقوى به الآخر.

(وأن الإيمان قول باللسان).

(قول باللسان).

---

(٣٠٦) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (٩)، مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(٣٠٧) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) من حديث عائشة -رضي الله عنها.

(٣٠٨) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) من حديث عائشة -رضي الله عنها.

(وإخلاص بالقلب).

(وإخلاص بالقلب): الإخلاص في الحقيقة هو من عمل القلب، إخلاص لله، وهو أن يكون الغاية من العمل هو ابتغاء وجه الله.

(وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح).

(وعمل بالجوارح).

(يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها).

يزيد بزيادة الأعمال الصالحة، وينقص بنقصها ينقص كمال الإيمان بنقصها بترك شيء من الفرائض، وينقص الإيمان المستحب بترك النوافل.

(فيكون فيها النقص وبها الزيادة).

بالأعمال، يعني هو الآن كأنه ركَّز على الأعمال الصالحة، يزيد بها بزيادتها، وينقص بنقصها، لكن أيضا ينقص بفعل المعاصي، ولهذا التعبير الآخر يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ينقص كماله الواجب.

(ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل).

ولا يكمل قول الإيمان؛ يعني الإقرار الذي هو باللسان، أو الاعتقاد الذي بالقلب لا يكمل ولا يتحقق إلا بالعمل الظاهر.

(ولا قول وعمل إلا بنية)؛ يعني ظاهر أنه يريد بالقول قول اللسان وإقرار اللسان، والعمل عمل الجوارح، والنية هي عمل القلب، فلا يكمل القول إلا بالعمل، ولا يكمل قول وعمل إلا بنية، ولا تكمل هذه الأمور إلا بالسنة.

(وَأَنَّهُ لاَ يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ).

هذه متصلة بما قبلها، متعلقة بمسألة الإيمان. يقول: (وأنه)؛ يعني مما يجب اعتقاده: أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب؛ كما قال الطحاوي[309]: "ولا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله". فاستدرك عليه الشارح يقول: "إن هذا من عموم السلب"، لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، هذا ليس مستقيما على الإطلاق، لكن مراد مَنْ أطلق هذا التعبير لا يريد أنه لا يكفر بأي ذنب ما دام أسلم، ما دام أنه من أهل القبلة لا يكفر بأي ذنب.

لا، فهناك ذنوب توجب له الخروج، يعني أسباب الردة، أسباب الردة ذنوب يكفر بها المسلم، المسلم يكفر ويخرج عن الملة ويصير مرتدًّا إذا ارتكب ناقضًا من نواقض الإيمان.

إذن: هذه العبارة لا تصلح على الإطلاق "وأنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب" أو: لا يكفر أحد بذنب، يعني لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، بذنب نكرة في سياق النفي معناها لا يكفر بأي ذنب، لكن في الحقيقة هو مقصود الذنوب التي هي دون الشرك والكفر، الداخلة في قوله -تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[310].

إذن: أهل السنة والجماعة لا يكفرون بالذنوب، الذنوب التي دون الشرك والكفر؛ من الزنا، والسرقة، والقتل، وأكل الربا من هذه الكبائر، أو العقوق، أو قطيعة رحم، أو غير ذلك من أنواع المعاصي لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب من هذه الذنوب. فعندهم أن أهل الكبائر من الموحدين، عندهم أنهم مؤمنون لكنّهم ناقصو الإيمان.

ويستدل أهل السنة على ذلك بقوله -تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[311]، سماهم مؤمنين مع اقتتالهم، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[312].

---

(٣٠٩) هو: الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك، الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف، من أهل قرية طحا من أعمال مصر. مولده في سنة تسع وثلاثين ومئتين. بدأ حياته شافعيًا ثم تحول إلى الحنفية وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. برز في علم الحديث وفي الفقه، وتفقه بالقاضي أحمد بن أبي عمران الحنفي، وجمع وصنف. قال ابن يونس: كان ثقة ثبتا فقهيا عارفا لم يخلق مثله. له مؤلفات جياد؛ منها: "شرح مشكل الآثار"، و"شرح معاني الآثار". مات سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧ ترجمة ١٥)، والجواهر المضية (١/ ٢٧١ ترجمة ٢٠٤).

(٣١٠) النساء: ٤٨.

(٣١١) الحجرات: ٩.

وسمَّى الله القتيل أخًا للقاتل ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[٣١٣].

فأهل السنة والجماعة يقولون: لا يخرج العاصي من الإيمان مطلق الإيمان لا يخرج بارتكاب كبيرة من كبائر الذنوب التي دون الشرك والكفر، وإذا مات على ذلك؛ فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء الله؛ غفر له، وإن شاء؛ عذبه، وإذا عذبه؛ فإنهم لا يخلده في النار، وقد تقدم الكلام على هذه المسألة، فصاحب الكبيرة له حكم في الدنيا، وله حكم في الآخرة. فالخوارج عندهم إن مرتكب الكبيرة كافر في الدنيا مخلد في النار يوم القيامة، كافر كافر، كسائر الكفرة يقولون: كافر في الدنيا، ومخلد في النار يوم القيامة.

والمعتزلة يقولون: لا، يخرج عن الإيمان ويصير في منزلة بين المنزلتين، لا كافر، ولا مؤمن، ولكنه إذا مات على ذلك؛ فهو مخلد في النار، فاتفقوا مع الخوارج في حكم الآخرة، واختلفوا معهم في حكم الدنيا.

وأهل السنة خالفوهم في الأمرين، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن أصل الإيمان، بل هو ناقص الإيمان مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه، ويوم القيامة هو تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، وإن عذبه؛ فإنه لا يخلد في النار.

فالمؤلف هنا في هذه الجملة يقرر أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب ارتكبه من الذنوب والمراد الذنوب الكبائر، أما الصغائر؛ فالظاهر أنه لا أحد يكفر بها، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه ورسوله.

يقول السائل: هل العبرة ببلوغ الحجة على الكافر؟ أم بفهمها؟ وكيف يمكن توجيه قوله -تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[٣١٤]؟

لا، لا بد من بلوغها، ولا يتحقق البلوغ إلا بفهم، يعني تقرأ القرآن على واحد أعجمي، وتقول: هذا يحصل به البلاغ. أعجمي تقول له: تعال واسمع القرآن وتقرأ عليه، لا، هذا الدين دين العقل والحكمة، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

(٣١٢) الحجرات: ٩- ١٠.

(٣١٣) البقرة: ١٧٨.

(٣١٤) العنكبوت: ٥١.

﴿الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[٣١٥] هذا إذا كان يحسن فهم القرآن ولغة القرآن، ومن لا يحسن العربية يترجم له ويبين له.

يقول: هل المنافق يرى الله -سبحانه وتعالى- في الموقف؟

يمكن يراه، لكن أي رؤية؟ رؤية الخزي والفضيحة، ولهذا يكون المنافقون مع المؤمنين في بعض المواقف، وإذا جاء الله -سبحانه وتعالى- وكشف عن ساقه يسجد له المؤمنون، فيذهب المنافق ليسجد فيكون ظهره كصياصي البقر، كلما أراد أن يسجد؛ خَرَّ على قفاه، نعوذ بالله.

يقول: هل يجوز قول أحد الزوجين للآخر: يا حياتي، أو: يا عمري؟

يمكن، هذا تعبير عن الحب.

يقول: ما رأيك بالمناظرات التي تُعقد بين السنة والرافضة؟ وهل يُعد ذلك من الدخول في الفتنة؟ أم فيه خير؟

هذا قد يكون فيه خير وقد يكون فيه شر، لو حصلت المناظرة مع مَن يظهر منه طلب الحق وكان ذلك في إطار ضيق كان أولى؛ لأن سماع العامة لشبهات أهل الباطل فيه خطر عليهم، لكن يُلِيَ الناس الآن بوسائل الإعلام، ما دام إنها يُلِيَ الناس بالقنوات وبالإنترنت أصبح لا مندوحة من مناظرة أهل الباطل؛ لأنهم يطرحون الشبهات، لو لم يطرحوا الشبهات في هذه الوسائل؛ قلنا: لا داعي إلى إثارة الشر، وطرح والإشكالات والشبهات، لكن الناس.. أصبح ما هناك مندوحة من هذا؛ لأنهم ينشرون شبهاتهم، وما دام أن الشبهات ظاهرة ومنشورة في مواقعهم ويسمعها الناس فلا بد ممن يُجيد المناظرة وعنده قدرة علمية وبيانية هذا من الجهاد ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[٣١٦].

يقول: ما هو الاستحلال باللفظ والاستحلال بالفعل؟ هل يكفر بذلك؟

لا، كلمة بالفعل هذه تحتاج إلى كلام، استحلال بالفعل يعني الذي يزني كثيرا، نقول: هذا مستحل بالفعل.

---

(٣١٥) التوبة: ٦.

(٣١٦) الفرقان: ٥٢.

يقول: ما حكم لعن المُعَيَّنِ؟ وهل هناك تفصيل في ذلك؟

لا، العصاة لا يجوز لعن أحدٍ منهم معينٍ، عصاة المسلمين؛ «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ»[٣١٧]، «لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرِينَ»[٣١٨].. وما إلى ذلك، لكن إنسان أُتِيَ به شاربَ خمرٍ، أو إنسان عُرِف أنه يتعامل بالربا تقول: لعنه الله، ما يجوز.

يقول: على مذهب الخوارج: هل إذا تاب صاحب الكبيرة؛ فهل يرجع عندهم إلى الإيمان؟

أجل، التوبة ما ينازع فيها أحد.

يقول: ما هي ثمرة الخلاف بوجود الجنة والنار الآن وكونهما دائمتين أو فانيتين؟

سبحان الله! ثمرة الخلاف، ما هي تريد الثمرة، ثمرة إيمان وعدم إيمان، سبحان الله! يعني ثمرة إيمان يعني ما هي الثمرة التي أنت تسأل عنها؟ يعني كأن الذي يقول هذا يقول: إنه ما له ثمرة، خلاف ما له ثمرة. لا، هذه عقيدة، ما ثمرة الإيمان بأن الله مستوٍ على العرش؟! ما ثمرة الإيمان بأن الله له وجه؟! عقيدةٌ، إيمانٌ، ثمرته إيمان وعدم إيمان، سبحان الله!!.

غفر الله لكم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الكبائر والصغائر.

دل القرآن ودلت السنة على أن الذنوب نوعان: كبائر وسيئات ليست كبائر، وعرفت عند العلماء بأنها الصغائر، كبائر وصغائر، يدل لذلك قوله -سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٣١٩]؛عني غير الكبائر، فَشَرَطَ في تكفير الصغائر اجتناب الكبائر، وهذا قد مَرَّ، وفي الحديث الصحيح:

---

(٣١٧) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله (١٥٩٨)بنحوه، من من حديث جابر -رضي الله عنه.

(٣١٨) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب مهر البغي والنكاح الفاسد (٥٣٤٧) بنحوه، من حديث وهب بن عبد الله -رضي الله عنه. وفي الباب من حديث عبدالله بن مسعود وغيره.

(٣١٩) النساء: ٣١.

«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ مُكَفِّرَاتٌ مِا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»[٣٢٠]. فلا ريب أن الذنوب نوعان: كبائر، وصغائر.

فلا ريب أن الذنوب نوعان: كبائر وصغائر، قال -صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟». قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَلاَ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»[٣٢١].

وقد اختلف العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر، فمن الناس من ضبط الكبائر بالعد، يقول: الكبائر سبع، الكبائر سبعون، وعدها، فضبطها بالعدد، كما جاء في قوله -صلى الله عليه وسلم: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ: الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ»[٣٢٢].

ومنهم من عدها بالحد؛ يعني بضابط، ثم هؤلاء اختلفوا اختلافا كثيرًا في الضابط، وأجمع ما قيل: إن الكبيرة ما توعد الله عليه بوعيد من لعن، أو غضب أو نار، وزاد شيخ الإسلام: "أو نفي الإيمان عن صاحبه، أو تَبَرَّأَ النبي -صلى الله عليه وسلم- منه" يعني الذي قيل فيه: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ»، «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٣٢٣]، وفي الحديث: «وَالله لاَ يُؤْمِنُ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ». قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٣٢٤].. وما أشبه ذلك. وقوله: «مَنْ غَشَّنَا؛ فَلَيْسَ مِنَّا»[٣٢٥].

---

(٣٢٠) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن (٢٣٣) بنحوه، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(٣٢١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤،٥٩٧٦)، مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧) من حديث أبي بكرة -رضي الله عنه.

(٣٢٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب قول الله -تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(٣٢٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الإيمان(١٥)، مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب حب النبي -صلى الله عليه وسلم- (٤٤) من حديث أنس -رضي الله عنه.

(٣٢٤) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٦٠١٦) من حديث أبي شريح.

(٣٢٥) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم: من غشنا؛ فليس منا (١٠١) من حديث أبي هريرة.

ومعنى هذا كله يمكن أن أختصره في عبارة، وهي: كل نهي جاء فيه تغليظ فهو كبيرة، تغليظ؛ يعني لم يقتصر فيه على مطلق نهي، لا، جاء فيه تغليظ، إما تغليظ مقرون بالنهي أو مستفاد من نص آخر، فكل ما نُهِيَ عنه وجاء فيه تغليظ بوعيد؛ فهو كبيرة؛ لأنه لم يقتصر فيه على مطلق النهي، فمطلق النهي يفيد التحريم، هذا هو الأصل؛ إلا أن يدل دليل على أنه ليس للتحريم، فالنهي الأصل فيه التحريم، لكن إن اقترن به تغليظ فإنه كبيرة؛ لأن هذا التغليظ دل على أنه ليس كسائر المنهيات.

وهناك كبائر جاء النص على أنه كبيرة؛ مثلما جاء في حديث السبع الموبقات، ومنها ما جاء في حديث أبي بكرة[٣٢٦] : «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»[٣٢٧]، ومثل: «مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ يَشْتِمَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ». قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه؟! قال: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ»[٣٢٨]، يعني من الكبائر ما جاء النص على أنه من الكبائر.

مذاهب الناس في مُسَمَّى الإيمان، المؤلف قد أحسن وأجاد في تقريره لمسمى الإيمان، وما يدخل في مسمى الإيمان، الإيمان ذكر أنه أن الإيمان يشمل اعتقاد القلب وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان قول وعمل هكذا جاء عن جمع من الأئمة، الإيمان قول وعمل.

وتفسير ذلك أن القول قول القلب وهو اعتقاده، وقول اللسان الإقرار، وعمل القلب وللقلب أعمال؛ كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل.

وعمل الجوارح معروفة؛ من ركوع، وسجود، وصيام، وإنفاق للمال، وأعمال الحج والجهاد، كلها عمل الجوارح.

---

(٣٢٦) نفيع أبو بكرة، ويقال: نفيع بن مسروح، ويقال: نفيع بن الحارث بن كلدة. وكان أبو بكرة من عبيد الحارث بن كلدة بن عمرو الثقفي، فاستلحقه، وهو ممن غلبت عليه كنيته، وأمه سمية أمة للحارث بن كلدة، وهي أم زياد بن أبي سفيان. يُقال: إن أبا بكرة تدلى من حصن الطائف ببكرة، ونزل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكناه أبا بكرة. سكن البصرة، وكان ممن اعتزل يوم الجمل لم يقاتل مع واحد من الفريقين. مات بها في سنة إحدى وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: ٧٨٢ ترجمة ٢٨٥١)، والإصابة (٦/ ٤٦٧ ترجمة ٨٧٩٩).

(٣٢٧) سبق تخريجه.

(٣٢٨) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه (٥٩٧٣)، مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

الخوارج والمعتزلة يوافقون أهل السنة في أن الإيمان قول وعمل، لكن عندهم أن الإيمان جزء لا يتجزأ إذا ذهب بعضه؛ ذهب كله، فيخرج عن الإيمان من ارتكب كبيرة، إما ترْك واجب أو فعْل محرم، فعندهم أن الإيمان لا يزيد وينقص لا، عندهم أنه إذا ذهب بعضه؛ ذهب كله، إذا ذهب بعضه بترك واجب، أو فعل محرم ذهب كله.

فالخوارج يقولون: إنه يصير كافرا، والمعتزلة يقولون: يصير في منزلة بين المنزلتين، وهذا أصل من أصول الإيمان، منزلة بين المنزلتين. ومن أصولهم إنفاذ الوعيد، أصولهم الخمسة المعروفة: التوحيد، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكذلك العدل.

وخالف في ذلك المرجئة، المرجئة طوائف أيضا، فالجهمية غلاة المرجئة يقولون: الإيمان هو المعرفة، معرفة الإنسان للخالق، فمن يعرف ويعترف بأن الله هو خالقه فهو مؤمن، هذا هو الإيمان، فيخرجون أعمال القلوب، وأعمال الجوارح عن مسمى الإيمان، وما دل الدليل على أنه كافر فإنه عندهم يدل على جهله بربه، من دل النص على كفره قالوا: هذا يستلزم أو يدل على جهله بربه، وأنه لا يعرف ربه، وهذا مذهب باطل، وقولهم: إنه يدل على جهله بربه، هذه مغالطة؛ فالله قال في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[٣٢٩].

فهم من أكفر خلق الله، مع معرفتهم بربهم ومعرفتهم بصدق موسى -عليه السلام-؛ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[٣٣٠]، فالمرجئة قال بعضهم: الإيمان هو مجرد المعرفة.

الثاني: قول بعض مرجئة الفقهاء، وقول الأشاعرة: إن الإيمان هو التصديق، وهذا قريب من الذي قبله، لكنه لا شك أنه أفضل يبدو أنه أقوى، يقول: الإيمان هو التصديق، يظهر أن الإيمان هو التصديق، يعني التصديق بربوبيته -تعالى-، التصديق برسله، التصديق بالمعاد، يجعلون الإيمان هو التصديق، تصديق القلب يعني بأصول الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ومذهب ثالث: وهو مذهب الْكَرَّامِيَّة، يقولون: الإيمان هو الكلمة فمن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فهو مؤمن، وإن كان منافقًا، وإن كان في الباطل بخلاف ذلك.

---

(٣٢٩) النمل: ١٤

(٣٣٠) الإسراء: ١٠٢

يقول شيخ الإسلام[٣٣١] : "وعندهم أن المنافق مخلد في النار". قال شيخ الإسلام -رحمه الله: "فخالفوا الجماعة"؛ يعني جماعة المسلمين في المنافق. "فخالفوا الجماعة في الاسم دون الحكم". خالفوا الجماعة في زعمهم أو في قولهم: إن المنافق مؤمن، ووافقوا الجماعة في الحكم حيث قالوا: إنه مخلد في النار، هذه أقاويل المرجئة.

ومن المرجئة من يقول: الإيمان هو التصديق، والإقرار باللسان، تصدق القلب وإقرار اللسان، وهذا هو المشهور المعروف عن أبي حنيفة وأصحابه، وهذا ما ذكره الطحاوي في عقيدته، قال: "الإيمان هو تصديق القلب وإقرار اللسان".

هذه هي أقاويل الناس في الإيمان، وهي كلها مردودة، وبعضها أفسد من بعض، والحق ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الإيمان شامل لاعتقاد القلب، وعمل القلب، وأقوال اللسان، الأقوال الشرعية فالاعتقادات الصحيحة والأعمال الصالحة كلها يشملها اسم الإيمان، وسبقت الإشارة إلى الحديث الصحيح: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً»[٣٣٢].

مسألة: قول المؤلف ابن أبي زيد[٣٣٣] -رحمه الله- صاحب الرسالة تعبيره عن آدم حين ذكر أن الله أهبطه من الجنة جنة الخلد التي أعدها الله لأوليائه، قال عن آدم وصفه بأنه (خليفته)، خليفته؛ أي خليفة الله، وهذا التعبير يعني القول بأن آدم خليفة الله، ويقول بعض المعاصرين من جهلة المسلمين يقولون تعبيرًا عن فضل الإنسان وعظمة الإنسان يقولون: الإنسان خليفة الله، الإنسان ما هو آدم لا، جنس الإنسان، يعني كل إنسان هو خليفة

---

(٣٣١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيميّة الحرّاني، ثم الدمشقي، الحنبلي، الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد. برع في العلوم الإسلامية والآلية، وقمع الله به أهل الضلال، ونصر به أهل السنة. ولد سنة إحدى وستين وست مئة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مئة. وله من المؤلفات: الواسطية، ومنهاج السنة. انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١ ترجمة ٥٣١)، والوافي بالوفيات (٧/ ١٠ ترجمة ٦١٩).

(٣٣٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (٩)، مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(٣٣٣) الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمد، عبد الله بن أبي زيد، القيرواني المالكي، ويقال له: مالك الصغير. كان أحد من برز في العلم والعمل. قال القاضي عياض: حاز رئاسة الدين والدنيا، ورحل إليه من الأقطار ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب، وملأ البلاد من تواليفه. تفقه بفقهاء القيروان. كان -رحمه الله- على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام، ولا يتأول. توفي سنة ست وثمانين وثلاث مئة. من أهم مصنفاته: "النوادر والزيادات". انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠ ترجمة ٤)، الديباج المذهب (١/ ٤٢٧ ترجمة ١١).

الله، خليفة الله في أرضه، وهذا باطل، أفيكون الكفرة خلفاءَ لله في أرضه؟!! هم أعداء الله، كيف يكونون؟ وكيف يقال عنهم أو عن جنسهم: إنهم خليفة عن الله في أرضه؟!! ومعنى ظاهر التعبير إنه خليفة الله إذا قيل: آدم خليفة الله أو قيل: إن الإنسان خليفة الله، معنى أنه نائب عن الله، نائب عن الله في أرضه، ونقول: أولا إنه لم يأت في آية ولا حديث إطلاق هذا اللقب على آدم، يعني أن آدم خليفة الله ما جاء، ما ورد، لا في آية ولا حديث، إنما الذي جاء في القرآن: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣٣٤]، ما قال: إني جاعل في الأرض خليفة لي أو خليفة عني، بل قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

قال المفسرون: معنى ذلك أنه خليفة لمن قبله، وأنه كان على الأرض خلق من خلق الله، وأنهم ذهبوا أو هلكوا أو عدموا وأن آدم خلقه الله وأهبطه إلى الأرض، وصار بذلك خليفة عمن قبله خلف، فخليفة بمعنى خالف، فعيل بمعنى فاعل، يعني أنه خلف غيره، وجاء بدلا عمن قبله، وقيل: معنى أن آدم خليفة ما هو بآدم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ المراد آدم وذريته، وأطلق عليهم اسم "خليفة"؛ يعني أنه يخلف بعضهم بعضا؛ كما قال -تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾[٣٣٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾[٣٣٦].

فلا ريب أن بني آدم منذ أهبط الله آدم وهم خلائف، أجيال يخلف بعضهم بعضا، الابن يخلف أباه، والجيل الواحد يخلف من قبله، وهذه الأمة تخلف التي قبلها، فهذه الأمم يخلف بعضها بعضا، فالله جعل هذه الأمم وجعل هذه البشرية خلائق؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣٣٧]. استخلفهم في الأرض وجعلهم خلائف؛ ليبتليهم بأنواع من الابتلاءات؛ ليبتليهم بالخير والشر، ويبتليهم بالشرائع والتكاليف وهذه سنة الله في الخلق.

لكن نريد أن نصل إلى: هل آدم خليفة الله؟ يصح أن يُقال: إن آدم خليفة عن الله؟ نقول: لا، لا يجوز؛ أولا: لأنه لم يأت هذه الإضافة لم يأت وصف آدم أو فضلا عن جنس الإنسان، لم يأت ما يدل على أنه خليفة الله؛ يعني خليفة عنه، أو خليفة الله من باب التشريف إضافة المخلوق إلى خالقه، لكن عند التحقيق هل يصح أن يُقال: إن

(٣٣٤) البقرة: ٣٠

(٣٣٥) الأنعام: ١٦٥

(٣٣٦) فاطر: ٣٩

(٣٣٧) الأنعام: ١٦٥

الإنسان أو إن آدم خليفة الله؟ الصواب: أنه لا يجوز؛ لأن الخليفة هو من يخلف غيره لمغيبه؛ «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا؛ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ؛ فَقَدْ غَزَا»(٣٣٨).

إذن: هذا خلف غيره، وناب مكانه عند غَيْبَتِه في مَغِيبِه، ويخلف الولد والده بعد موته خليفةً. والله -سبحانه وتعالى- حي لا يموت، شاهد لا يغيب.

إذن: فلا يصح أن يُقال: إن أحدا خليفة عن الله، الذي يكون له خليفة هو من يغيب أو من يموت، هذا هو الذي يحتاج إلى من يخلفه على مهماته.

حقق هذا المعنى شيخ الإسلام -رحمه الله- وابن القيم في "مفتاح دار السعادة" حين شرح وصايا علي -رضي الله عنه- لصاحبه كُمَيْلِ بن زياد(٣٣٩).

ومن الشواهد على أن الله هو الذي يخلف يعني عبده إذا مات؛ لأنه حي -سبحانه وتعالى- لا يموت، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، وجاء في حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن الدجال أنه قال: «فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ، وَإِنْ أَنَا مِتُّ» أو كما قال -عليه الصلاة والسلام: «فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي». هذا هو الشاهد «خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»(٣٤٠).

فنخرج بهذا أنه لا يُقال: إن آدم خليفة الله، ولا يُقال لأحد من الناس: خليفة، والتعبير عن الملوك بأنهم خلفاء راجع إلى أنه يخلف بعضهم بعضا، هذا يموت أو يُعزل، ثم يأتي من بعده فالذي جاء خليفة عمن قبله، فهم خلفاء بهذا الاعتبار، وهؤلاء الخلفاء مثلا في الخلافات من ولاة المسلمين؛ يعني ليس فيها فضيلة، تسمية الخليفة أو تسميته ملكا، سيان ليس فيها خصوصية؛ فالخلافة ذات الفضيلة هي خلافة النبوة، وهي مختصة بخلافة أبي بكر،

---

(٣٣٨) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير (٢٨٤٣)، مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره (١٨٩٥) من حديث زيد بن خالد.

(٣٣٩) هو: كميل بن زياد بن نهيك بن الهيثم بن سعد بن مالك بن الحارث بن صهبان بن سعد بن مالك بن النخع النخعي الصهباني الكوفي. وقيل: كميل بن عبد الله، وقيل: كميل بن عبد الرحمن. شهد مع علي صفين. قتله الحجاج بن يوسف بالكوفة سنة اثنيتن وثمانين. روى له النسائي. قال ابن حجر في التقريب: ثقة، رُمي بالتشيع. انظر: الثقات لابن حبان (٥/ ٣٤١ ترجمة ٥١٣٤)، تهذيب الكمال (٢٤/ ٢١٨ ترجمة ٤٩٩٦).

(٣٤٠) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته ومن معه (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان.

وعمر، وعثمان، وعلي ليس إلا. أما من بعد الخلفاء الراشدين؛ فهي خلافات عادية ليس لها فضيلة، إلا بحسب ما تتميز به من القيام بأمر الله، ولهذا تَمَيَّزَ عمر بن عبد العزيز -رحمه الله[٣٤١] بِمَا وفقه الله له من العدل والقيام بدين الله، فكان معدودا عند بعض أهل العلم من جملة الخلفاء الراشدين، فيُلحقونه بالخلفاء الراشدين. وأما من سواه؛ فهم خلفاء وملوك فهم خلفاء؛ لأنهم كما تقدم يخلف بعضهم بعضا، فاللاحق خليفة عن السابق، والله أعلم.

(وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ السَّعَادَةِ بَاقِيَةٌ نَاعِمَةٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ).

في هذه الجملة مسألتان:

المسألة الأولى: أن الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله مجاهدين لإعلاء كلمة الله أنهم أحياء عند الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٣٤٢]، وقال -سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[٣٤٣].

وهذه الحياة يقول فيها أهل العلم: إنها حياة برزخية؛ يعني يريدون أن يقولون: إنها ليست كالحياة الدنيوية الحياة الدنيا، فالشهداء الذين قتلوا في سبيل الله هم قد ماتوا، يعني فارقوا هذه الحياة، حياة الابتلاء والتكليف فهذه الحياة لها شأن ولها أحكام. أما الحياة البرزخية؛ فتختلف، فالمقتول تجري عليه أحكام الميت، المقتول في سبيل الله تجري عليه الأحكام؛ يُورث عنه ماله، يقسم بين ورثته، وتتزوج من بعده نساؤه. المهم أنه تزول عنه أحكام الحياة الدنيا، وهذه الآية -أعني آية سورة آل عمران- هذه نزلت في شهداء أحد الذين قتلوا في وقعة أحد، ومنهم

---

((٣٤١) ) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، أبو حفص المدني، ثم الدمشقي. أمير المؤمنين، الإمام العادل، والخليفة الصالح، وأمه أم عاصم حفصة، وقيل ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. وَلِيَ الخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان من أئمة العدل، وأهل الدين والفضل، وكانت ولايته تسعة وعشرين شهرا مثل ولاية أبي بكر الصديق. قال ابن حجر في التقريب: عُد مع الخلفاء الراشدين. ولد سنة ثلاث وستين، ومات يوم الجمعة لعشر بقين من رجب سنة إحدى ومئة. انظر: تهذيب الكمال (٢١/ ٤٣٢ ترجمة ٤٢٧٧)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤ ترجمة ٤٨).

(٣٤٢) آل عمران: ١٦٩

(٣٤٣) البقرة: ١٥٤

حمزة[٣٤٤] عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، نزلت في شأنهم هذه الآيات العظيمة، وأخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن «أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ، وَتَرِدُ أَنْهَارَهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ»[٣٤٥].

فلها شأن هذه المسألة، ولا شك أن الشهداء يتفاوتون في منازلهم وفي حظهم من هذه الحياة، بِحَسَبِ مراتبهم في إيمانهم ومراتبهم في الشهادة، فالشهداء يتفاضلون كما أن الأنبياء يتفاضلون.

ولكن هل نشهد لمعين قُتِلَ في سبيل الله نقول: هذا شهيد؟

لا، ما نقول: هذا شهيد، نقول: قُتِلَ في سبيل الله، إن شاء الله إنه شهيد، إن شاء الله، تُرجى له الشهادة، ويُدعى له بها، لكن لا يُشهد، الله أعلم بحاله وبِسِرِّه، وكما قلت: إن حياتهم البرزخية هم يتفاضلون فيها.

المسألة الثانية مما اشتملت علي الجملة المتقدمة: إن أرواح المؤمنين مُنَعَّمَةٌ عند الله في نعيم، أرواح المؤمنين، وأرواح الكافرين معذبة، وهذا يقتضي أن الأرواح باقية، أرواح المؤمنين بعد موتهم باقية موجودة، فأرواح المؤمنين في نعيم منعمة، وأرواح الكافرين في عذاب.

إذن: الأرواح على هذا المفهوم يعني شيء يعني الروح نقول شيء موجود قائم بنفسه، يعني الروح لها حقيقة، وهي موجودة قائمة بنفسها، ما معنى قائمة بنفسها؟ يعني أنها ليست عَرَضًا، لا توجد إلا في غيرها؛ خلافا لمن زعم ذلك من طوائف المتكلمين.

---

((٣٤٤) ) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو عمارة عم النبي صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب وقريبه من أمه أيضا لأن أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة بنت عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف أم النبي صلى الله عليه وسلم ولد قبل النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وقيل بأربع وأسلم في السنة الثانية من البعثة ولازم نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أول من عقد له اللواء، شهد بدرا وأبلى بلاء حسنا واستشهد في غزوة أحد وقصة قتله من وحشي رضي الله عنهما مشهورة وكان ذلك في النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة فعاش دون الستين ولقبه النبي صلى الله عليه وسلم بأسد الله وسيد الشهداء ويقال إنه قتل بأحد قبل أن يقتل أكثر من ثلاثين نفسا (انظر أسد الغابة (١/ ٥٢٨نرجمة١٢٥١)، الإصابة (٢/ ١٢١ترجمة١٨٢٨))

(٣٤٥) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود مرفوعا.

والروح قد اضطرب في توصيفها وتعريفها الناس، فمنهم من جعلها من جنس الأجسام المشهودة، فقال: هي كذا، هي جزء من البدن، هي النفس المتردد، هي كذا، هي جزء من البدن كالكبد هي البدن نفسه، وآخرون قالوا: إن الروح شيء لا يوصف أبدا لا بنفي ولا إثبات، وهذا قول بعض طوائف الفلاسفة، فهذان قولان.

والتحقيق: أن الروح حقيقة موجودة موصوفة بصفات ثبوتية وسلبية، هذا هو التحقيق.

إذن: فهي لها حقيقة وهي قائمة بنفسها، ومن شأنها أنها تذهب وتجيء وتصعد وتنزل وتُنَعَّمُ وتُعَذَّبُ.

أما أن أرواح المؤمنين باقية وتُنَعَّمُ؛ فله أدلة؛ منها ما يتعلق بنعيم القبر، أنه يفتح للمؤمن باب إلى الجنة، ويأتيه من روحها وطيبها، وجاء في الحديث: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ»(٣٤٦).

وأرواح الكافرين معذبة باقية موجودة معذبة؛ كما قال الله في فرعون وقومه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾(٣٤٧).

فهذه الجملة من كلام المؤلف أفادتنا أنه يرى أن الأرواح شيء قائم يعني أشياء قائمة بنفسها، وأن أرواح المؤمنين مُنَعَّمَةٌ، وأرواح الكافرين معذبة، فخالف بذلك من يزعم أن الروح عَرَضٌ، عرض يعني مثل البرودة والسخونة، وعلى قول من يجعلها عرضا، يعني يستلزم قوله هذا أنه ليس هناك عذاب برزخي ولا نعيم برزخي، ولا حياة برزخية ولا شيء، ذهبت الروح مثل إذا تغير اللون وذهب اللون، اللون عرض.

وابن القيم(٣٤٨) له كلام عن الروح في كتابه "الروح" وكلام مستفيض عن الروح، وأهل العلم يذكرون مذاهب الناس في الروح.

---

(٣٤٦) صحيح: أخرجه أحمد (١٥٧٧٧)، الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في ثواب الشهداء (١٦٤١)، النسائي: كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين (٢٠٧٣)، ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٤٢٧١) من حديث كعب بن مالك -رضي الله عنه-، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح.

(٣٤٧) غافر: ٤٦

(٣٤٨) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز، شمس الدين أبو عبد الله، الزرعي، ثم الدمشقي. الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف. ابن قيم الجوزية. تفقه في المذهب الحنبلي، وبرع وأفتى، ولازم شيخ الإسلام ابن تيميَّة. وكان ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة، ولهج بالذكر. له تواليف حسان؛ منها: "زاد المعاد"، و"بدائع الفوائد". ولد سنة إحدى وتسعين وست مئة، وتوفي سنة إحدة وخمسين وسبع مئة. انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣)، والذيل على طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٠ ترجمة ٦٠٠).

والحق هو ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة، وهي تدل على هذا المعنى؛ أن الروح ذات حقيقة موجودة، وأنها موصوفة. ولكن مع ذلك هي ليست مثل هذه الأجسام المشاهدة، ومع ذلك هي قريبة منا ولا نعقلها، ولا نتصور كُنْهَها مع أنها فينا.

ولهذا يقول ابن تيمية في العقيدة التدمرية: "المثل الثاني: هذه الروح التي فينا"؛ يعني التي بها حياتنا، وهي قِوَامُ حياتنا، هذه الروح التي فينا هي موصوفة بصفات كيت وكيت ثبوتية وسلبية، ومع ذلك لا ندرك كنهها ولا حقيقتها، و يقول ابن القيم في "الشافية الكافية":

والشأن للأرواح بَعْدَ فراقِها *** أبدانَها والله أعظم شَانِ

إِمَّا عذاب أو نعيم دائمٌ *** قد نُعِّمَتْ بالرَّوْحِ والريحانِ

يقول:

لكنَّ أرواح الذين استشهدوا *** في جوفِ طيرٍ أخضرٍ ريانِ

بذلوا الجسوم لربهم فأعاضهم *** أجسام ذاك الطير بالإحسانِ

إلى أن قال:

والقائلون بأنها عرض أبوا *** ذا كله تبا لذي نكرانِ

القائلون بأن الروح عرض؛ يعني جحدوا هذا كله، عذاب القبر ونعيم القبر، وما جاء في شأن أرواح السعداء، أنكروا هذا كله أبوا ذا كله تبا لذي نكرانِ.

(وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[٣٤٩]، وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةً يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ).

هذه المسألة التي تقول: (وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم)، لست أدري لماذا قَيَّدَها بالمؤمنين؟ في الحقيقة لو قال: وأن الناس عموما، الناس يفتنون في قبورهم.

(٣٤٩) إبراهيم: ٢٧

وجاء في الحديث الصحيح، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَإِذَا وُضِعَ الْمَيِّتُ أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَيَسْأَلاَنِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ.

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ -أَوِ الْمُوقِنُ-؛ فَيَقُولُ: رَبِيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإِسْلاَمُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُ -أَوِ الْمُرْتَابُ-؛ فيقول: هَاهْ هَاهْ! لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ»(٣٥٠).

فلو قال المؤلف: إن الناس، وما يقول: (وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم)، هذا التقييد لا وجه له؛ فالمؤمنون يفتنون في قبورهم، والكافرون يفتنون في قبورهم؛ أي يسألون ويمتحنون، فإذا وضع الميت في قبره أتاه ملكان فيقعدانه، ويسألانه مسائل القبر الثلاث، من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ أو ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيسألانه، فأما المؤمن فيجيب ويصيب، وأما المنافق فيجيب بالحيرة، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلت.

وقد أُشير في القرآن إلى فتنة القبر؛ كما في قوله -تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(٣٥١).

(وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم).

(يفتنون)؛ يعني يُختبرون، الفتنة بمعنى الاختبار، ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(٣٥٢)، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾(٣٥٣)، ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾(٣٥٤)، فالفتنة معناها الابتلاء والاختبار.

(يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(٣٥٥).

(وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةً يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلاَ يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ).

---

(٣٥٠) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة، باب الاقتداء بسنن النبي -صلى الله عليه وسلم- ( ٧٢٨٧)، مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- (٩٠٥) من حديث أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما-، بنحوه.

(٣٥١) إبراهيم: ٢٧

(٣٥٢) الأنبياء: ٣٥

(٣٥٣) العنكبوت: ٢

(٣٥٤) الأنعام: ٥٣

(٣٥٥) إبراهيم: ٢٧

(وأن على العباد حفظة) ويجب الإيمان بأن على العباد حفظة، كل هذا معطوف على أنه (من الإيمان: الإيمان بكذا، والإيمان بكذا، وأنه كذا وأنه كذا، وأن أرواح المؤمنين باقية وفي نعيم منعمة، وأن أرواح الكافرين باقية، وأنها معذبة، وأن الناس يفتنون في قبورهم) كما تقدم.

(وأن على العباد حفظة) نعم، يجب الإيمان بأن على العباد حفظة، يعني على العباد المكلفين حفظة، ملائكة موكلين بحفظ عمل العبد.

والإيمان بالملائكة تعلمون أنه أحد أصول الإيمان الستة، في الكتاب والسنة، الإيمان بالملائكة إجمالا ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[356] ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِّ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[357]، فهذا إيمان مُجْمَل بالملائكة.

ومن الإيمان التفصيلي بالملائكة: الإيمان بأصنافهم، فالملائكة أصناف، ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾[358]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾[359].. وهكذا.

فالملائكة أصناف: الموكل بالوحي، والموكل بالأرحام والأجنة، والموكل بالقطر والمطر، والموكل بقبض أرواح العباد، هؤلاء طوائف الملائكة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[360].

وقال في ملك الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[361]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِّ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[362]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[363]، فملك

(٣٥٦) البقرة: ١٧٧
(٣٥٧) البقرة: ٢٨٥
(٣٥٨) الصافات: ٣
(٣٥٩) المرسلات: ٥
(٣٦٠) الانفطار: ١٢
(٣٦١) السجدة: ١١
(٣٦٢) الأنعام: ٩٣
(٣٦٣) الأنفال: ٥٠

الموت واحد، لكن معه أعوان، وهؤلاء منهم من يتولى روح المؤمن بعد أن يقبضها الملك، ومنهم من يتولى روح الكافر، فالأولون ملائكة الرحمة، والآخرون ملائكة العذاب.

انظروا إلى هذه الآية: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣٦٤].

ومن الإيمان بالملائكة: الإيمان بملك الموت الموكل بقبض أرواح الناس، وقد جاء ذكر التوفي مضافا إلى الله، ومضافا إلى الملائكة، ومضافا إلى ملك الموت، التوفي ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٣٦٥]، وجاء مضافا إلى ملك الموت؛ ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾[٣٦٦]، وجاء مضافا إلى الملائكة ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾[٣٦٧].

قال العلماء: الجمع بين هذه الآيات سهل: فإضافة التوفي إلى الله؛ لأن ذلك كان بمشيئته وقدرته وحكمته -سبحانه وتعالى-، فالتوفي راجع إليه؛ لأنه لا يكون في هذا الوجود إلا ما شاءه -سبحانه وتعالى-.

وإضافة التوفي إلى ملك الموت؛ لأنه الذي يتولى قبضها عند خروجها، وأضيف إلى المجموع الملائكة؛ لأنهم الذين يتولون الروح بعد قبض الملك لها، جاء في حديث البراء الطويل: لاَ يَدَعُونَهَا؛ أي الملائكة، لاَ يَدَعُونَ الرُّوحَ فِي يَدِ الْمَلَكِ -مَلَكِ الْمَوْتِ- «لاَ يَدَعُونَهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ»[٣٦٨] إذن: هذا أشار المؤلف إلى بعض ما يتعلق بالإيمان بالملائكة، فالإيمان بالملائكة يكون على وجه الإجمال، ويكون تفصيلا بِحَسَبِ ما يصل من العلم بهم إلى العبد، فيجب الإيمان بالملائكة إجمالا وتفصيلا بِحَسَبِ ما يبلغ العبدَ من العلم عنهم.

---

(٣٦٤) النحل: ٣٢

(٣٦٥) الزمر: ٤٢

(٣٦٦) السجدة: ١١

(٣٦٧) الأنفال: ٥٠

(٣٦٨) صحيح: أخرجه أحمد في المسند (١٨٥٣٤) واللفظ له، وأبو داود: كتاب السنة، باب المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣)، الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة إبراهيم (٣١٢٠)، قال الترمذي: حسن صحيح، النسائي: كتاب الجنائز، باب الوقوف للجنائز (٢٠٠١)، ابن ماجه: كتاب: ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في الجلوس في المقابر (١٥٤٩)، مختصرا، من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه-، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٥٨): صحيح. وأصله في الصحيحين.

ومن الملائكة حملة العرش، ومن الملائكة الحافّون بالعرش، من حول العرش ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾(٣٦٩) و"مَنْ" معطوف على "الذين" على الاسم الموصول الذين يحملون العرش والذين حوله، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾(٣٧٠) إلى آخر الآية.

والملائكة الموكلون بكتابة الأعمال، قيل: يكتبون كل شيء، بل الحق أنهم يكتبون أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ وذلك لعموم قوله –تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٣٧١)، ولما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً» كتبت له انظر، «وَإِذَا هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كُتِبَتْ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، وإذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا؛ كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»(٣٧٢).

إذن: الملائكة يكتبون أعمال القلوب، وهموم القلوب، والله –تعالى– يُطْلِعُهم على ذلك، ويُقْدِرُهم على أن يعلموا ما يكون في القلوب من هذه النيات، ومن هذه الخواطر، والله قد ذكر الملائكة في غير الآيات التي تتعلق بالإيمان بهم ذكر من صفاتهم دوام العبادة لا يَفْتُرُون ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنهارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾(٣٧٣)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(٣٧٤)، فهم عابدون لله دائما، لا يفترون عن عبادته، ولا يفترون عن تسبيحه وتقديسه وتمجيده.

(وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم).

(يكتبون أعمالهم) جميعا أعمالهم الصالحة، وأعمالهم السيئة، وأعمالهم التي لا ثواب فيها ولا عقاب، هذا هو الصحيح؛ لعموم الآيات في قوله –تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٣٧٥)؛ إذن: فهم يكتبون ما يتكلم به الإنسان من الكلمات الطيبة، أو كلمات سيئة، أو ما بين ذلك.

(٣٦٩) غافر: ٧

(٣٧٠) غافر: ٧

(٣٧١) الانفطار: ١٢

(٣٧٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١)، مسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة؛ كتبت، وإذا هم بسيئة؛ لم تكتب (١٣١) من حديث ابن عباس، بنحوه.

(٣٧٣) الأنبياء: ٢٠

(٣٧٤) الأعراف: ٢٠٦

(٣٧٥) ق: ١٨

(ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم).

لا يسقط شيء، لا يسقط شيء من أعمال العباد وأقوالهم عن علمه -سبحانه وتعالى-. وكونه -تعالى- خلق ملائكة ووكلهم بكتابة أعمال العباد ليس هذا لحاجته إلى أن يعلم أعمال العباد لئلا ينساها، لا، بل قدَّر ذلك وقضاه وشاءه لحكم بالغة؛ فإن الله -تعالى- لا يَضِلّ ولا يَنْسَى.

(وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه).

نعم، بإذنه -سبحانه وتعالى-، ولهذا أضيف التوفي إليه، وأضيف إلى الملك وأضيف إلى الملائكة.

يقول السائل: ما المراد بقوله تعالى: ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[٣٧٦]؟ وهل يُستدل بهذه الآية على مجيء الرب -تعالى-؟

لا، هذه الآية لا يستدل بها على مجيء الرب، يستدل بها على مجيء أمره، فأمره يجيء في الدعاء حتى في الدنيا ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[٣٧٧]، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾[٣٧٨]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[٣٧٩]، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[٣٨٠].. إلى غير ذلك، جاء أمره.

فأمره يجيء في الدنيا، أمره بعذاب المكذبين والكافرين يجيء ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، فجاء أمره بنجاة هود والمؤمنين، وبهلاك أعدائه، ويجيء الأمر وهم في الآخرة كذلك، ولكن هذا لا ينافي ما جاء في النصوص الأخرى بأنه هو نفسه يجيء ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٣٨١]، فلا يجوز تأويل آية "الفجر" بأن المراد مجيء أمره، هذا لا يصح؛ إلا لو ثبت بالضرورة أن الله لا يجيء أو لا يجوز عليه المجيء، بل نقول: الله -تعالى- يجيء كيف شاء ويجيء أمره -سبحانه وتعالى- من قبل ومن بعد.

يقول: هل أبو حنيفة يوصف بالإرجاء في الإيمان؟

---

(٣٧٦) هود: ٧٦

(٣٧٧) هود: ٥٨

(٣٧٨) هود: ٦٦

(٣٧٩) هود: ٥٨

(٣٨٠) هود: ٨٢

(٣٨١) الفجر: ٢٢

أي نعم.

هل إرجاؤه يعطل العمل؟

لا، مرجئة الفقهاء يخالفون في مسمى الإيمان، لكنهم يقولون بوجوب الواجبات وتحريم المحرمات.

يقول: ألا يُقال: إن الفتنة تكون على المؤمنين؛ كما في الحديث، والعذاب على الكافرين كما في الآية؟

لا، ليس صحيحا، الفتنة هو السؤال، والسؤال على الجميع، والنعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين.

يقول: من قال كلمة التوحيد وجهل معناها، بل يظن أن الإسلام هو ما يفعله من الدعاء لغير الله واعتقاد أن غير الله يضر وينفع، فهل يعتبر مسلما ويعذر بجهله أو تأويله؟

أما حكمه في الآخرة؛ فهذا إلى الله، وأما في الدنيا، فإذا بُيِّنَ له وأصر؛ فهو مشرك كافر، وإذا لم يُبَيَّن له؛ فالأصل أنه مسلم.

يقول: هل عذاب القبر على الروح والجسد؟

أي نعم، عند أهل السنة على الروح والجسد.

(وَأَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ).

وأن خير الناس القوم الذين رأوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وآمنوا به؛ يعني: ويجب الإيمان بذلك، الإيمان بأن خير الناس القرن الذين رأوا الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

وكأنه بذلك يريد أن يذكر ضابط الصحابي أو تعريف الصحابي، وهو الذي رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمنا به (رأى).

قال الحافظ ابن حجر[٣٨٢] في "نخبة الفكر": "الصحابي هو: مَنْ لَقِيَ النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمنا به"، وأتى بقيود أخرى بدهية، "ومات على الإسلام، ولو تخلل ذلك ردة في الأصح". الشاهد أنه يقول: "لقي"،

(٣٨٢) أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر، شهاب الدين أبو الفضل الكناني العسقلاني الشافعي. قاضي القضاة، حافظ زمانه. نشأ يتيما، وأكمل حفظ القرآن في التاسعة من عمر، وصلى التراويح بالناس في الحرم المكي وله اثنا عشر عاما.

ويقول: "إني آثرت تعبير بـ: لقي على رأى؛ ليشمل ذلك الأعمى؛ كابن أم مكتوم[٣٨٣]". فإذا قيل: من رأى، فابن أم مكتوم ما رأى النبي لقي النبي لكن ما رآه. فالحافظ -رحمه الله- آثر التعبير بـ: لقي، "من لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمنا به، ومات على الإسلام"[٣٨٤].

وكذا ابن أبي زيد[٣٨٥] -رحمه الله- هنا يقول: (وأن خير الناس القرن الذين رأوا النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمنا به).

قال: (ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم): وهذا مستفاد من الحديث الثابت في الصحيحين من رواية عمران بن حصين[٣٨٦] ومن حديث ابن مسعود، قال -عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ

---

رحل حبا في العلم وتطلبا للشيوخ. من أبرز شيوخه: ابن الملقن، والسراج البلقيني، وأبو الحسن الهيثمي. من أبرز تلاميذه: السخاوي، ابن قاضي شهبة، ابن تغري بردي. له مؤلفات حسان؛ أهمها: "فتح الباري"، و"لسان الميزان"، و"الدرر الكامنة". ولد سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة، وتوفي سنة ثنتين وخمسين وثمان مئة. انظر: الضوء اللامع (٢/ ٣٦ ترجمة ١٠٤)، وحسن المحاضرة (١/ ٣٦٣ ترجمة ١٠٢)، وله ترجمة موعبة في الجواهر والدرر لتلميذه السخاوي.

(٣٨٣) ابن أم مكتوم القرشي العامري. مختلف في اسمه؛ فأهل المدينة يقولون: عبد الله بن قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة القرشي، العامري. وأما أهل العراق؛ فسموه عمرًا. وأمه أم مكتوم هي عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم بن يقظة المخزومية. من السابقين المهاجرين، وكان ضريرا، مؤذنا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع بلال، وسعد القرظ، وأبي محذورة، مؤذن مكة. هاجر بعد وقعة بدر بيسير. مات بالمدينة، وقيل: استشهد في القادسية. انظر: الاستيعاب (ص:٣٨٠ ترجمة ١٢٩٩)، وأسد الغابة (٣/ ٣٤٦ ترجمة ٣١٣٦).

(٣٨٤) نزهة النظر شرح نخبة الفكر (ص١٤٠)

(٣٨٥) الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمد، عبد الله بن أبي زيد، القيرواني المالكي، ويقال له: مالك الصغير. كان أحد من برز في العلم والعمل. قال القاضي عياض: حاز رئاسة الدين والدنيا، ورحل إليه من الأقطار ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب، وملأ البلاد من تواليفه. تفقه بفقهاء القيروان. كان -رحمه الله- على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام، ولا يتأول. توفي سنة ست وثمانين وثلاث مئة. من أهم مصنفاته: "النوادر والزيادات". انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠ ترجمة ٤)، الديباج المذهب (١/ ٤٢٧ ترجمة ١١).

(٣٨٦) هو: الصحابي عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، أبو نجيد الخزاعي. القدوة الإمام صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. أسلم هو وأبوه وأبو هريرة سنة سبع. وله عدة أحاديث. وولي قضاء البصرة، وكان عمر بعثه إلى أهل البصرة ليفقههم، فكان الحسن يحلف: ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران بن الحصين. كان مجاب الدعوة ولم يشهد الفتنة. توفي بالبصرة سنة اثنتين وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: ٥٢١ ترجمة ١٨٦٨)، وأسد الغابة (٤/ ٢٦٩ ترجمة ٤٠٤٨).

يَلُونَهُمْ»[٣٨٧]. قال عمران: "فَلاَ أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً"[٣٨٨]، وفي لفظ: «الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ»[٣٨٩]. وهذا الحديث من الأدلة على فضل الصحابة -رضوان الله عليهم-، وأنهم خير الناس بعد الأنبياء.

تكلم شيخ الإسلام -رحمه الله- في "العقيدة الواسطية" عن فضل الصحابة وما قاموا به من أعمال؛ من الهجرة، والنصرة، والجهاد في سبيل الله.. إلخ، فيقول: "من نظر في سيرة القوم ببصيرة؛ عَلِمَ أنهم خير الناس بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم".

ومن أدلة ذلك الأحاديث الدالة على فضل الصحابة: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[٣٩٠]. يوضح ذلك ما ثبت أن هذه الأمة خير الأمم، كما في الحديث: «تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ»[٣٩١].

فإذا كانت هذه الأمة خيرَ الأمم، والصحابةُ خيرَ هذه الأمة؛ عُلِمَ من ذلك أنهم خير الناس، خير الناس مطلقا، أن الصحابة خير الناس مطلقا بعد الأنبياء.

والصحابة متفاوتون في الفضل، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بفضل الصحابة ويقولون: "إنه تجب محبتهم، ويجب إنزالهم منازلهم، ومعرفة فضلهم وتفاضلهم".

وقضية الصحابة هي من القضايا العقدية التي افترقت فيها الأمة، فقوم غلوا وقوم جفوا، فلهذا يقول شيخ الإسلام في "العقيدة الواسطية": "وهم وسط - أي أهل السنة- في أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بين الرافضة والخوارج". ولا تظهر هذه الوسطية في الحقيقة إلا مثلا في أهل البيت في علي -رضي الله عنه- وأهل

---

(٣٨٧) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٥٢)،مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة -رضي الله عنهم- ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

(٣٨٨) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب فضائل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- (٣٦٥٠)، مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة -رضي الله عنهم- ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥).

(٣٨٩) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة -رضي الله عنهم- (٢٥٣٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

(٣٩٠) سبق تخريجه.

(٣٩١) حسن: أخرجه أحمد في المسند (٢٠٠٢٩) واللفظ له، الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران (٣٠٠١)، قال الترمذي: حسن، ابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (٤٢٨٨) من حديث معاوية بن حيدة -رضي الله عنه-، قال الألباني في صحيح الترمذي: حسن.

بيته، وآخرين من الصحابة فالرافضة غلوا في أهل البيت، وادعوا فيهم العصمة، والخوارج جفوا في حقهم، فقد كفروا عليًّا وأصحاب الْجَمَلِ، وأصحاب صِفِّينَ. فالتقابل بين الخوارج وبين الرافضة في أكثر ما يظهر في أهل البيت. وإلا؛ فالرافضة أتعس من الخوارج في أصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ فإنهم يُبغضون ويسبون جمهورَ الصحابة، ويُكفرونهم أو يُفسِّقوهم، وأكثر ما يُبالغون في بُغضه وسبه خيرتهم، خيرة الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعثمان -رضوان الله عليهم-. فكأنهم كلما كان الصحابي أفضل؛ كان إليهم أبغض، وهم طائفة مخذولة هم شر طوائف الأمة، الرافضة هم شر طوائف الأمة اجتمع فيهم كل مساوئ وشر الطوائف الأخرى، اجتمع فيهم بدعة الخوارج، فهم يبغضون الصحابة ويسبونهم ويكفرونهم، فإن الخوارج إنما يكفرون بعض الصحابة من في عهدهم، فيكفرون عثمان ومن بعده، لكنهم يعظمون أبا بكر وعمر ويحترمونهما، فكانوا بهذا خيرا من الرافضة.

يقول المؤلف -رحمه الله: (ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)؛ كما جاء في السنة، وهذه القرون تعرف عند أهل العلم بالقرون المفضلة، القرون المفضلة قرون هذه الأمة المفضلة، القرون المفضلة بنص رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

والقرن هم الجيل والأمة التي تكون متقاربة في زمن واحد، وليس القرن هو مئة سنة، الآن المشهور في التأريخ أن القرن مئة سنة، هذا اصطلاح للمؤرخين، يقولون الآن هذا القرن الخامس عشر، نحن في القرن الخامس عشر، وهذا جارٍ على الاصطلاح التأريخي، اصطلاح المؤرخين، وإلا؛ فالقرن الذي هو الجيل والأمة التي يكون زمنها متقاربًا أقل من مئة سنة، فالقرون المفضلة التي جاء فيها.. يمكن أنهم لا يتجاوزون المئتين، وهذا التفضيل ظاهره الإجمال، أي تفضيل جملة على جملة، الصحابة أو القرن الأول أفضل من القرن الثاني تَفْضِيلٌ جُمْلِيّ.

فهل كل صحابي أفضل مِنْ كل مَنْ جاء بعده -بعد الصحابة-؟ هذا محل خلاف ونظر. والصحابة يمكن أن يَصْدُقَ هذا على بعض الصحابة، فمن الصحابة من نعلم أنه خير من كل من جاء بعد الصحابة، وفي بعضهم يمكن أن يكون محلّ نظر وتأمل، والله أعلم.

ولكن هذه القرون المفضلة لا شك أن الخير فيهم أكثر ممن جاء بعدهم، ولهذا جاء في الحديث: «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ»[٣٩٢] وكذا، لأنه يكثر الشر

(٣٩٢) سبق تخريجه.

في الناس، وجاء عن أنس -رضي الله عنه[٣٩٣] أنه قال: «لاَ يَأْتِي زَمَانٌ إِلاَّ وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣٩٤].

فكلما تأخر الزمان كان الشر أكثر، ولكن دين الله باقٍ ومحفوظ، ولا تزال وفي مقابل ذلك قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ -تبارك وتعالى»[٣٩٥].

(وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ).

يقول: (أفضل الصحابة) اختصر هو -رحمه الله-، أفضل الصحابة على الإطلاق الخلفاء الراشدون، وهم أفضل الصحابة، وهذا باتفاق أهل السنة؛ أن أفضل الصحابة على الإطلاق الخلفاء الراشدون، قال: (وهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي)، وظاهر تعبيره أنه رَتَّبَهم في الفضل على هذا الترتيب؛ لأنه عطف بعضهم على بعض بـ(ثم)، ولم يقل: وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، بل قال: (أبو بكر، ثم عمر)؛ يعني عمر مِنْ بَعْدِ أبي بكر، (ثم عثمان، ثم علي).

وأهل السنة متفقون على تقديم أبي بكر وعمر على جميع الصحابة، وجميع الأمة على تقديم أبي بكر، ثم عمر عَلَى جميع الأمة.

واختلف في المفاضلة بين عثمان وعلي -رضوان الله عليهم أجمعين: فمن السلف من فضَّل عليًّا على عثمان، ومنهم من قدَّم عثمان، ومنهم من توقف، هكذا يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في "العقيدة الواسطية" يقول: "قوم

---

(٣٩٣) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار. الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة الانصاري الخزرجي النجاري المدني، خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقرابته من النساء، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتا، وروى عنه علما جما، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة. دعا له النبي بالبركة، فرأى من ولَده وولَدِ ولَدِه نحوا من مئة نفْس. مات سنة إحدى وتسعين. انظر: الاستيعاب (ص: ٥٣ ترجمة ٤٣)، والإصابة (١/ ١٢٦ ترجمة ٢٧٧).

(٣٩٤) أخرجه البخاري: كتال الفتن، باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه (٧٠٦٨) بنحوه، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه.

(٣٩٥) أخرجه مسلم: من حديث جابر: كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم- لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين (١٩٢٠) من حديث ثوبان -رضي الله عنه.

قدموا عثمان وسكتوا، أو رَبَّعُوا بعليٍّ، وقدَّم قوم عليًّا وقوم توقفوا". لكن استقر أمر أهل السنة، استقر أخيرا كأنهم بعد ذلك انعقد الإجماع، ثم استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان، وهذا هو الصواب الذي تدل عليه الأدلة؛ فقد صح عن ابن عمر -رضي الله عنه- أنه يقول: «كُنَّا نَقُولُ -وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ: خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ»[٣٩٦] فما ذكره ابن أبي زيد -رحمه الله- هو ما استقر عليه أمر أهل السنة، استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان.

إذن: أفضل هذه الأمة وخيرها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله: "وهذه المسألة -مسألة المفاضلة بين علي وعثمان- ليست من المسائل التي يضلل فيها المخالف"؛ يعني الأمر فيها واسع، ولا يُبَدَّع من فضَّل عليًّا من السلف، من فضَّل من السلف عليًّا لا يُبَدَّع بذلك، وإنما الذي يضلل فيها المخالف مسألة الخلافة، فمن طعن في خلافة عثمان؛ فهو أضل من حِمَارِ أهله، وفي اللفظ المأثور عن بعض السلف أيوب السختياني[٣٩٧] يقول: "مَنْ طَعَنَ فِي خِلافَةِ عُثْمَانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ"[٣٩٨]؛ يعني طعن في رأيهم؛ أنهم لم يصيبوا في اختيار عثمان وتقديمه على علي -رضي الله عنهم-.

واقتصر المؤلف على ذكر الخلفاء الراشدين في ترتيب الصحابة في الفضل، والمعروف أن أفضل الصحابة بعد الخلفاء الراشدين بقية العشرة المبشرين بالجنة؛ سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام بقية العشرة، وعلى سبيل الإجمال أفضل الصحابة أهل بدر وأهل بيعة الرضوان؛ لِمَا ورد فيهم من التفضيل الخاص؛ كقوله -سبحانه وتعالى- في أهل بيعة الرضوان: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾[٣٩٩] قال -صلى الله عليه وسلم: «لاَ

---

(٣٩٦) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي (٣٦٩٧)، بنحوه.

(٣٩٧) هو: أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني، العنزي، مولاهم، أبو بكر البصري، الأَدَمِيّ ويقال: ولاؤه لطهية، وقيل: لجهينة. الإمام الحافظ سيد العلماء. عداده في صغار التابعين. مولده عام توفي ابن عباس، سنة ثمان وستين. قال ابن حجر في التقريب: ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد. توفي سنة إحدى وثلاثين ومئة بالبصرة، زمن الطاعون، وله ثلاث وستون سنة. انظر: تهذيب الكمال (٣/ ٤٥٧ ترجمة ٦٠٧)، سير أعلام النبلاء (٦/ ١٥ ترجمة ٧).

(٣٩٨) ذكره الهيتمي في الصواعق المحرقة (١/ ١٣٣)

(٣٩٩) الفتح: ١٨.

يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»[٤٠٠]، وقال -صلى الله عليه وسلم: «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[٤٠١]، وغالب أهل بدر هم من أهل بيعة الرضوان، فتجتمع لهم الفضيلتان، ومن التفضيل الإجمالي: تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من جاء بعدهم، وأصح وأحسن ما قيل في تفسير السابقين: أنهم من آمن وأنفق من قبل الفتح الذي هو صلح الحديبية.

﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾[٤٠٢]، فالسابقون الأولون هم الذين آمنوا وأنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبية، وجميع أهل بيعة الرضوان هم من السابقين، هم ممن أنفق وقاتل قبل صلح الحديبية، وهم الذين بايعوا تحت الشجرة.

(وَأَنْ لاَ يُذْكَرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلاَّ بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، وَالإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَيُظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ).

على كل حال في هذه الجملة تنبيه على ما يجب لأصحاب رسول الله؛ تجب محبتهم، والإيمان بفضلهم، وإنزال كل منهم منزلته، وذكرهم بالجميل، ذكرهم بأحسن ذكر، بذكر فضائلهم؛ إيمانهم وصحبتهم للرسول -عليه الصلاة والسلام-، وجهادهم وهجرتهم، ونصرتهم، فيجب أن يذكروا بذكر محاسنهم، كما يقول الطحاوي[٤٠٣]:

---

(٤٠٠) صحيح: أخرجه أحمد في المسند (١٤٧٧٨)، أبو دواود: كتاب السنة، باب في الخلفاء (٤٦٥٣)، الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل من بايع تحت الشجرة (٣٨٦٠)، قال الترمذي: حسن صحيح، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح.

(٤٠١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٣٩٨٣)، مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه.

(٤٠٢) الحديد: ١٠.

(٤٠٣) الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك، الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف، من أهل قرية طحا من أعمال مصر. مولده في سنة تسع وثلاثين ومئتين. بدأ حياته شافعيًا ثم تحول إلى الحنفية وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. برز في علم الحديث وفي الفقه، وتفقه بالقاضي أحمد بن أبي عمران الحنفي، وجمع وصنف. قال ابن يونس: كان ثقة ثبتا فقيها عارفا لم يخلق مثله. له مؤلفات جياد؛ منها: "شرح مشكل الآثار"، و"شرح معاني الآثار". مات سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧ ترجمة ١٥)، والجواهر المضية (١/ ٢٧١ ترجمة ٢٠٤).

"ونحب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونُنْزلهم منازلهم، ولا نذكرهم إلا بالجميل، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نتبرأ من أحد منهم"؛ خلافا للخوارج والروافض [٤٠٤].

ومما يجب أيضا مراعاته وملاحظته في أصحاب الرسول: الإمساك عمَّا شَجَرَ بينهم، ووقع بينهم من خلاف، سواء كان فرديا أو جماعيا؛ فهم بشر ليسوا بمعصومين.

ومن اعتقاد أهل السنة: أنهم لا يعتقدون العصمة في أحد من أصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، لا يعتقدون العصمة بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتجوز عليهم الذنوب، لكنهم أحرى من سائر الأمة بمغفرة الله ورحمته؛ فلهم من الحسنات ما يغفر الله لهم بها السيئات.

فمن الواجب: الإمساك عمَّا شجر ووقع بينهم من اختلاف، اختلاف فردي؛ مثل ما كان بين خالد[٤٠٥] وعبد الرحمن بن عوف[٤٠٦] -رضي الله عنهما- فإن خالدا كان بينه وبين عبد الرحمن خلاف يعني مما يجري بين الناس من

---

(٤٠٤) العقيدة الطحاوية (ص٥٧).

(٤٠٥) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن كعب. سيف الله -تعالى-، وفارس الإسلام، وليث المشاهد، السيد الإمام الأمير الكبير، قائد المجاهدين، أبو سليمان القرشي المخزومي المكي، وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. هاجر مسلما في صفر سنة ثمان، ثم سار غازيا، سماه النبي -صلى الله عليه وسلم- سيف الله، فقال: «إن خالدا سيف سله الله على المشركين». شهد الفتح وحنينا، وتأمر في أيام النبي -صلى الله عليه وسلم-، واحتبس أدراعه ولأمته في سبيل الله، وحارب أهل الردة، ومسيلمة، وغزا العراق، وشهد حروب الشام، ولم يبق في جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء. وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه، فلا قرت أعين الجبناء. توفي بحمص سنة إحدى وعشرين، وهو ابن ستين سنة. انظر: الاستيعاب (ص: ١٩٧ ترجمة ٦١٠)، والإصابة (٢/ ٢٥١ ترجمة ٢٢٠٣).

(٤٠٦) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، أبو محمد. أحد العشرة، وأحد الستة أهل الشورى، وأحد السابقين البدريين، القرشي الزهري. وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام. كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو. ولد عبد الرحمن بعد عام الفيل بعشر سنين. كان رجلا طوالا، حسن الوجه، رقيق البشرة، فيه جنأ، أبيض، مشربا حمرة، لا يغير شيبه. توفي سنة اثنتين وثلاثين، وهو ابن خمس وسبعين سنة، ودفن بالبقيع. انظر: الاستيعاب (ص: ٤٤٢ ترجمة ١٥٣٠)، والإصابة (٤/ ٣٤٦ ترجمة ٥١٨٣).

اختلاف، فقال -عليه الصلاة والسلام: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ»[٤٠٧].

والخلاف الجماعي ما حصل بين علي وأصحابه وبين أهل الشام؛ معاوية ومن معه، وما جرى على إِثْرِ ذلك من قتال، كما في واقعة الْجَمَل، وواقعة صِفِّينَ.

فالواجب الإمساك عن الخوض في ذلك، وعدم التحدث به في المجالس؛ لأن كثيرا من الناس يقع في نفسه غِلْظَةٌ على أصحاب رسول الله عندما يسمع بعض الأمور التي لا يحسن تفسيرها، ولا يجد سبيلا وطريقًا لما يكون عذرا لهم -رضوان الله عليهم.

فالواجب الإمساك، فلا يُجعلون حديث المجالس وهذا مما يجب الإعراض عنه في الحديث مع الناس؛ لأنهم لا خير للناس في ذكر ما جرى، ثم إنما يذكر في كتب التأريخ كما يقول ابن تيمية[٤٠٨]: "منه ما هو كذب، ومنه ما زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، أو مجتهدون مخطئون، وهم على كل حال مأجورون". إما مجتهدون مصيبون فلهم أجران، أو مجتهدون مخطئون فلهم أجر واحد على اجتهادهم وحسن نياتهم.

والمؤلف هنا يقول: إنه يجب الإمساك عما جرى بينهم، وشجر بينهم من الخلاف، وأنهم أولى الناس بالتماس العذْر لهم. فإذا كان الواجب في عامة المسلمين التماس العذر لهم، وحمل الناس على حسن الظن، إذا كان هذا حقا عاما للمسلمين بعضهم مع بعض؛ فالصحابة هم أحق الناس بذلك، هم أحق بالتماس العذر لهم، والعذر لهم أنهم مجتهدون، والذنوب المحققة يعني ما كان من بعضهم من ذنوب محققة؛ فإنهم أحرى بأسباب المغفرة.

---

(٤٠٧) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب لو كنت متخذا خليلا (٣٦٧٣)، مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري. وفي الباب من حديث أبي هريرة. وأخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة.

(٤٠٨) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيميّة الحرّاني، ثم الدمشقي، الحنبلي، الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد. برع في العلوم الإسلامية والآلية، وقمع الله به أهل الضلال، ونصر به أهل السنة. ولد سنة إحدى وستين وست مئة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مئة. وله من المؤلفات: الواسطية، ومنهاج السنة. انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١ ترجمة ٥٣١)، والوافي بالوفيات (٧/ ١٠ ترجمة ٦١٩).

يقول ابن تيمية في العقيدة الواسطية: "الأمر دائر إما أن يكون قد تاب منه، أو حصل له من المصائب ما كَفَّرَ الله به عنه، أو أن تكون هذه الذنوب مغفورةً في جَنْبِ فضائلِهم وأعمالهم الصالحة من الجهاد والهجرة والنصرة وغير ذلك".

وأنا أنصح بحفظ العقيدة الواسطية عموما وبهذا المقطع خاصة المتعلق بفضل الصحابة من قوله: "ويمسكون عمَّا شجر بين أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-" إلى آخر الفصل، وإذا تيسر حفظها؛ فهي نافعة ومفيدة، فهي قد تضمنت تقرير عقيدة أهل السنة في المسائل التي وقع فيها الافتراق بين فرق الأمة.

(وَالطَّاعَةُ لأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وُلاَةِ أُمُورِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ )

في هذه الجملة أيضا ذكر عدةَ مسائلَ من منهج أهل السنة والجماعة.

فمن منهج أهل السنة والجماعة: السمع والطاعة لأئمة المسلمين وولاة أمورهم، كما قال -صلى الله عليه وسلم: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»[٤٠٩] وقال -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[٤١٠].

والأحاديث المتضمنة لوجوب السمع والطاعة لولاة الأمر والنهي عن الخروج عليهم مستفيضةٌ عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلهذا كان مما خالف فيه أهلُ السنة أهلَ البدع هو ما يعتقدونه ويعملون به مع ولاة الأمر.

وأما أهل البدع كالخوارج والمعتزلة؛ فمن أصولهم: الخروج على الأئمة، المعتزلة عندهم من أصولهم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُدخلون في ذلك الخروجَ على الولاة الظلمة باسم إنكار المنكر، وإنما وجب السمع والطاعة وحرم الخروج على ولاة الأمور وإن جاروا وإن ظلموا؛ لأن الخروجَ عليهم يَنشأ ويحصل بسببه من الفساد أعظم مما أُرِيدَ تغييرُه وإزالتُه.

---

(٤٠٩) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام (٢٩٥٥)، مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٨٣٩) بنحوه، من حديث ابن عمر.

(٤١٠) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز (٧١٤٥، ٧٢٥٧)، مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب.

ومن قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر احتمال أدنى المفسدتين لدفع أسوأهما وأعظمهما، احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعظمهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما وأفضلهما، فإذا كان إنكار المنكر يولد منكرا أعظم؛ أصبح الإنكار منكرا.

يقول المؤلف: (وعلمائهم): هذا كأنه يشير ويتضمن أن قوله -سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٤١١] إنه شامل للأئمة الحكام ذوي السلطان وللعلماء. وقد فسر ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ في الآية بالصنفين، فالعلماء يُطاعون فيما يبلغونه عن الله ورسوله، ويجب الرجوع إليهم؛ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤١٢]، فيما يبلغونه.

ولا يجب على أحد مثلا طاعتهم في المسائل الاجتهادية إلا المقلد؛ فالمقلد يجب عليه أن يستفتي من يثق بعلمه ودينه ويعمل بفتواه. أما من كان لديه القدرة على معرفة الحق بدليله؛ فعليه أن يقبل ويرجع إلى أهل العلم في معرفة ما جاء عن الله ورسوله.

وولاة الأمر الأئمة السلاطين إنما تجب طاعتهم في غير معصية الله، وما يقع منهم من معصية أو ظلم وجور وأثرة كل ذلك لا يمنع من أداء الواجب، وفي الحديث: «أَدُّوا الْحَقَّ الَّذِي لَهُمْ، وَسَلُوا اللهَ الَّذِي لَكُمْ»[٤١٣]؛ أدوا الحق الذي لهم من السمع والطاعة، وسلوا الله الذي لكم إذا قصروا وفَرَّطُوا في شيء من حقوق الأمة. فالمظلوم ناصره الله -تعالى- عاجلا أو آجلا، المظلوم الله ناصره في الدنيا أو في الآخرة، فلا بد أن ينصف الله المظلوم من الظالم من الولاة أو غيرهم.

وَاتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمْ.

وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ فِي الدِّينِ.

وَتَرْكُ كُلِّ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ.

---

(٤١١) النساء: ٥٩.

(٤١٢) النحل: ٤٣.

(٤١٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٣)، مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٣) عبد الله بن مسعود، بنحوه.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا).

وختم المؤلف هذه الجملَ الطيبة بأنه أيضا مما يجب ترك الجدال في الدين على طريقة المبتدعين والكافرين الذين يجادلون في آيات الله مكذبين تكذيبا لها، أو تحريفا لها، ومن هذا النوع اتباع المتشابه من القرآن. كل ذلك داخل في الجدال المذموم. أما الجدال بالحجج الصحيحة، الجدال بآيات الله، فرق بين الجدال في آيات الله تكذيبا لها وتحريفا أو الجدال بآيات الله، يعني الاحتجاج بكتاب الله وبسنة رسول الله، واتخاذها والاستدلال بها، هذا هو الواجب، الواجب أن نجادل الكافرين، ونجادل المخالفين بالحجج الصحيحة بما في كتاب الله، وبما صح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

ثم يجب على المسلم أن يحقق اتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- واتباع السلف الصالح، فهذا هو الصراط المستقيم؛ ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٤١٤]. فيجب على المسلم أن يتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم إماما وقدوة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٤١٥] ويتبع السلف الصالح؛ لأنهم الذين عرفوا الحق وتلقوه عن نبيهم وقاموا به علما وعملا وجهادًا وبلغوه لمن بعدهم، وهم خير هذه الأمة كما هو معلوم.

إذن: هم المعيار لمعرفة الحق من الباطل سيرتهم وهديهم، ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث في ذكر الفرقة الناجية: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»[٤١٦] أعد الجملة الأخيرة.

(والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم).

(واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم): الصحابة ومن تبعهم بإحسان ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾[٤١٧] اتبعوهم بإحسان، يجب اتباعهم على المنهج القويم الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

(والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين).

---

(٤١٤) الأعراف: ١٥٨.

(٤١٥) الأحزاب: ٢١.

(٤١٦) حسن: أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الترمذي: مفسر غريب، وقال الألباني في صحيح الترمذي: حسن. وفي الباب من حديث أنس وأبي الدرداء وأبي أمامة وغيرهم.

(٤١٧) التوبة: ١٠٠.

ومن حقهم: الاستغفار لهم، الاستغفار لأصحاب رسول الله هذا تابع للمعنى الأول وهو الإمساك عما شجر بين الصحابة، وكذلك ينبغي الترضي عنهم، والاستغفار لهم؛ كما قال -سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤١٨] فذكر الله المهاجرين ثم الأنصار ثم الذين جاءوا من بعدهم، حتى قال الإمام مالك وغيره: "إن الذين لا يستغفرون للصحابة، ولا يُثنون عليهم لا يستحقون من الفيء شيئا". فالرافضة هم أبرز من عُرف ببغض الصحابة وعداوتهم وترك الاستغفار لهم بل بلعنهم! فيتدينون بلعن أبي بكر وعمر وعثمان، وسائر الصحابة وسائر الأمة إلى يومنا هذا، تجدون هذا في بعض كتبهم وأذكارهم التي يتعبدون بتلاوتها.

(والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون).

(وترك كل ما أحدثه المحدثون): هذه جملة عامة؛ يعني وترك جميع البدع، فالمحدثات هي البدع؛ كما قال -صلى الله عليه وسلم: «وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ»[٤١٩].

وترك المحدثات في الدين، المحدثات ترك البدع، وتحقيق الاتباع يكون بلزوم السنة، والعمل بها وترك ما خالفها من المحدثات؛ «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ»[٤٢٠]. وترك كل ما أحدث في الدين، كل المحدثات.

وقد أُحدث بدع كبيرة وصغيرة، فالواجب اجتناب البدع صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها. فهناك البدع الاعتقادية، والبدع العملية، البدع الاعتقادية؛ كبدع أهل الكلام من التعطيل وغيره، ونفي القدر وغيره، والبدع العملية بدع الصوفية التي تظهر في أعمالهم وعباداتهم وأذكارهم، ومثل الرافضة قد جمعوا بين البدع الاعتقادية والعملية فلا يُحصى ما يتدينون به من الباطل الكثير من البدع الكبيرة والصغيرة التي لم يشاركهم فيها غيرهم،

---

(٤١٨) الحشر: ١٠.

(٤١٩) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧). من حديث جابر به، دون قولة «وكل ضلالة في النار».

و أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيفية الخطبة (١٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله به. قال الألباني في صحيح النسائي: صحيح.

(٤٢٠) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور؛ فالصلح مردود (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) من حديث عائشة.

انظروا إلى ما يفعلونه في كل سنة في عاشوراء، هذه بدعة تميزوا بها عن جميع طوائف المبتدعة في الأمة، فعندهم التُّرَّهات والْخُزَعْبَلات والسَّفاهات، فلا تسأل عما يتكتمون عليه من الباطل.

فالمؤلف -رحمه الله- قد أحسن في هذه المقدمة في بعض مسائل العقيدة. وأقول: عرف ابن أبي زيد[٤٢١] -رحمه الله- أنه من أهل السنة ويُوصف بذلك، والمُعَوَّلُ في ذلك على هذه المقدمة، وتظهر سلفيته في مسائلَ مما مر علينا:

أولا: أنه أثبت العلو لله والاستواء على العرش في قوله: (وأن الله فوق العرش المجيد بذاته) تقدم، هذا تصريح بإثباته لعلوه -سبحانه وتعالى- علو الذات، وقال: (وأنه تعالى استوى على العرش)، (وأن الله على العرش استوى وعلى الملك احتوى)، (على العرش استوى). ففي هذا تقرير لإثبات العلو والاستواء، وهذا مما تنفيه طوائف النفاة من الجهمية والمعتزلة. أقول: والأشاعرة كما تقدم.

ومن المسائل التي تظهر فيها سلفيته: قوله: (وأن الله كلم موسى بكلامه الذي هو صفته)، ففي هذا دلالة على أن المصنف -رحمه الله- يُثبت صفة الكلام لله، وأنه -تعالى- كلامه قائم به، وأن موسى سمع كلام الله من الله، (وأن الله كلم موسى بكلامه الذي هو صفة له).

ومما تظهر فيه سلفيته أيضا ما ذكره في ضابط الإيمان: (وأن الإيمان اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح)، فهذا هو الإيمان عند أهل السنة قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح فالمصنف على هذا.

لعل هذه هي أبرز المسائل التي يتميز فيها مذهبه، وتتضح فيها سلفيته في الاعتقاد، رحمه الله ونفعنا وإياكم بما علمنا، وثبتنا وإياكم على هداه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله.

يقول السائل: ما المراد بقول المؤلف: (ويظن بهم أحسن المذاهب)؟

---

(٤٢١) الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمد، عبد الله بن أبي زيد، القيرواني المالكي، ويقال له: مالك الصغير. كان أحد من برز في العلم والعمل. قال القاضي عياض: حاز رئاسة الدين والدنيا، ورحل إليه من الأقطار ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب، وملأ البلاد من تواليفه. تفقه بفقهاء القيروان. كان -رحمه الله- على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام، ولا يتأول. توفي سنة ست وثمانين وثلاث مئة. من أهم مصنفاته: "النوادر والزيادات". انظر: السير (١٧/ ١٠ ترجمة ٤)، والديباج المذهب (١/ ٤٢٧ ترجمة ١١).

(يظن بهم أحسن المذاهب): أحسن المذاهب أنهم مجتهدون، هذا هو، يظن بهم أحسن الظن، فليس مذهبا اصطلاحيا في مسائل، لا، أحسن الظن أن نيتهم حسنة، وأنهم مجتهدون.

يقول: أشكل عليَّ الجمع بين حديثين: الأول: ما ورد في صحيح مسلم من قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ نَبِيٍّ قَبْلِي إِلاَّ وَلَهُ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ مِنْ أُمَّتِهِ يَذُبُّونَ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَيَهْتَدُونَ بِسُنَّتِهِ»(٤٢٢)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»؟(٤٢٣)

هذا سؤال مطروق ومذكور، والآن مع أنه سؤال مطروق الآن ما يحضرني الجواب الشافي في هذا المقام، مما قيل: أنه يُحتمل أن يكون له صاحب، ثم يرتد فيكون له صحابي في وقت، ثم يرتد، ثم يوم القيامة لا يكون معه أحد، الظاهر هذا مما قيل في الأجوبة وإن كان فيه ما فيه، يعني قد لا تطيب به النفس جوابا عن هذا السؤال، وقد يقال مثلا: إن قوله: «ما من نبي» إلخ عام، ولا ينفي أن يكون بعض الأنبياء وهم قلة يأتي الواحد ولم يؤمن به أحد، يكون يعني قوله: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلاَّ كَانَ لَهُ أَصْحَابٌ وَحَوَارِيُّونَ» يكون أغلبيًّا لا أنه عام عمومًا مُطَّرِدًا، هذا مما يمكن أن يقال، والله أعلم.

يقول: هل يليق بطالب العلم أن يقرأ ويبحث عن الأحداث التي جرت بين الصحابة، سيما وأن الشبهات التي تطرق..؟

لا، لا، ما ينبغي الانشغال بهذا، وأنا أذكر لكم أن أحد الناس من المعنيين بالتأريخ وتسجيل الأشرطة من لم يوفق فسجل ما في التأريخ من ذكر الأحداث التي جرت بين الصحابة، فسجلها فجعلها في أشرطة تَروج بين الناس ويستمع لها الصغار والكبار والرجال والنساء والجهال وفسقة الناس، ومن قد يكون في قلوبهم غِلّ على التسجيلات الإسلامية بسبب جهلهم. وإلا؛ فليست هذه إسلامية، وقد صدرت فتوى من اللجنة الدائمة في أيام

(٤٢٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤٢٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب (٦٥٤١)، مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠) واللفظ له، من حديث ابن عباس.

الشيخ عبد العزيز بن باز[٤٢٤] -رحمه الله- بتحريم ترويج هذه الأشرطة، وهذه لطارق السويدان معروف فما عليه غطاء، طارق السويدان لم يوفق في هذا، فهذا عمله عَمِلَه بنيته، لكن عمله هذا منكر.

يقول: سمعت يا شيخ من يقول أن أبا حنيفة مبتدع، ويقال ببدعيته في الدنيا والآخرة؛ لقوله بالإرجاء فما قولكم؟

سبحان الله العظيم! أبو حنيفة إمام وله ذكر جميل، وله أصحاب، وله اجتهادات، وهذا لا ينفي أن يقع منه الخطأ وهو مشهور بمسألة الإرجاء وتسمية الإيمان، ويعرف مذهبه ومذهب من تبعه في هذا يعرف بإرجاء الفقهاء إرجاء خفيف، يعني وإن كان يترتب عليه ما يترتب. بعض الناس يقول: إن الخلاف بين جمهور أهل السنة ومرجئة الفقهاء خلاف لفظيّ، والواقع أنه ليس خلافا لفظيا محضا، وإلا؛ كان الاشتغال بالرد عليه من ضياع الوقت، لكن هو يترتب عليه مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، ومسألة الاستثناء في الإيمان، وأيضا أنه مخالف لظاهر النصوص. كيف نقول: إن الأعمال ليست من الإيمان مع ورود النصوص المصرحة كحديث أبي هريرة حديث الشعب، شعب الإيمان[٤٢٥] وحديث وفد عبد القيس «آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهَ. أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ»[٤٢٦]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام.

---

(٤٢٤) عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن باز. الشيخ العلامة الداعية الفقيه الزاهد. ولد في الثاني عشر من ذي الحجة سنة ثلاثين وثلاث مئة وألف بمدينة الرياض، وكان بصيرا ثم أصابه مرض الجدري المنتشر في تلك الفترة، وضعف بصره ثم فقده عام خمسين وثلاث مئة وألف. حفظ القرآن الكريم قبل سن البلوغ، ثم جد في طلب العلم على العلماء في الرياض، ولما برز في العلوم الشرعية واللغة؛ عُين في القضاء. وشغل الإفتاء إلى أن مات -رحمه الله- قبيل فجر الخميس في السابع والعشرين من المحرم سنة عشرين وأربع مئة وألف. من مؤلفاته: "الفوائد الجلية في المباحث الفرضية"، و"التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة"، وغيرها كثير. انظر: علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب (١/ ٧٧)، وله ترجمة موعبة في موقعه على الشبكة العنكبوتية.

(٤٢٥) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان وقول الله -تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق...﴾ (٩)، مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥).

(٤٢٦) متفق عليه: اخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (٥٣)، مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (١٧) من حديث ابن عباس. من حديث ابن عباس، بنحوه.

يقول: قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»[٤٢٧] هل يدخل فيه الأمور الدنيوية؛ مثل في شرب القهوة وأكل التمر؟

لا، لا أرى هذا تطبيقًا وتفصيلا إلا فيما ورد فقط، يعني ما نأخذ «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ» ونطبقه في أمور لا في الدينية ولا في الدنيوية، بل إنما نعرف هذا ببيانه -صلى الله عليه وسلم- فيما دلت السنة على استحباب الوتر فيه، مثل أكل التمرات في عيد الفطر «يَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا»[٤٢٨] نقول نعم كُلْ ثَلاثًا، وأكل التمرات السبع كل صباح الذي يتحرى هذه السنة[٤٢٩] ويأكل سبع تمرات، نعم، لكن الظهر تريد أن تقول: آكل ثلاث تمرات وترا تعبدًا: لا.

يقول: ذكرتم أن خليفة الله لا تجوز، فما قولكم في قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ مُمَكِّنٌ لَكُمْ فِي الأَرْضِ وَمُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[٤٣٠]؟

هذا في الحديث وفي القرآن، في القرآن أيضا استخلاف الأمم، ما هو استخلفكم عنه؛ جعلكم خلفاء لمن قبلكم، ما قال: استخلفكم عنه وأنابكم عنه، لا هذه ما فيها دلالة.

يقول: هل صحيح أنَّ الرافضة أهمّ شيء عندهم في مذهبهم هو الإمامة؟

والله هكذا يعدونها من أركان الإيمان، أو أنها الركن الأعظم، اقرأ مقدمة أول كتاب "منهاج السنة" لشيخ الإسلام ابن تيمية، اقرأ الأول في الأول.

يقول: هل لهذه المقدمة شروح؟ وما رأيكم بشرح القاضي عبد الوهاب المالكي[٤٣١] لهذه المقدمة؟

---

(٤٢٧) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد (٦٤١٠)، مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله -تعالى- وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) واللفظ له، من حديث أبي هريرة.

(٤٢٨) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩٥٣) من حديث أنس.

(٤٢٩) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب العجوة (٥٤٤٥)، مسلم: كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة (٢٠٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه.

(٤٣٠) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري، بنحوه.

(٤٣١) الإمام العلامة، شيخ المالكية، القاضي أبو محمد، عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون بن مالك بن طوق التغلبي البغدادي الفقيه المالكي، كان فقيها أديبا شاعرا، صنف في مذهبه كتاب "التلقين" وهو مع صغر حجمه من خيار الكتب وأكثرها

والله لا أدري، أنا لا أذكر، يعني يقولون إنها شرحت شروحا كثيرة، شرحت الرسالة نفسها في جملتها الرسالة من أولها إلى آخرها، يعني المقدمة وغيرها، الانطباع العام أن الغالب على الناس التأثر بالمذاهب الكلامية، لكنني ما أخص معينًا ولا أحكم على الشرح الذي تسأل عنه، وهذه المقدمة ولله الحمد كما رأيتم واضحة ومختصرة وقلت لكم: إن أبرز ما يميز سلفيتَه وسنّيّتَه هو تقريبا المسائل التي عددتها، يمكن أربع مسائل، ويمكن فاتني بعض المسائل.

فائدة، وله كتاب "المعونة" و"شرح الرسالة" وغير ذلك عدة تصانيف. توفي ليلة الاثنين الرابعة عشرة من صفر سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة بمصر. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٢٩ ترجمة ٢٨٧)، والديباج المذهب (٢/ ٢٦ ترجمة ٣).